

سفينة الموت

عجّارة السلام 98

قصة واقعية يرويها الكاتب الصحفي
الناجى محمد آل مشوح



٢ مكتبة العبيكان، ١٤٣٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المعاوي، محمد علي ناصر

سفينة الموت (عبارة السلام ٩٨): قصة واقعية للكاتب الصحفي الناجي محمد آل مشوط /

محمد علي ناصر المعاوي - الرياض، ١٤٣٣هـ

١٩٢ ص، ٢١×١٤ سم

ردمك: ٦-١٨٠-٥٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١. القصص القصيرة العربية أ. العنوان

ديوي: ٨١٣، ٠١

رقم الإيداع: ١٤٣٣/٢٣٨

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م

جميع الحقوق الفكرية والطباعة محفوظة للناشر

الناشر

العبيكان
Obeikan

الرياض، المحمدية، طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس ٤٨٠٩٣١٩، ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرمز: ١١٥١٧

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

متجر العبيكان على آبل

<http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store>

العبيكان
Obeikan

التوزيع: مكتبة

الرياض، العليا، تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: ٤١٦٠٠١٨ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرمز: ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطتين سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا
وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ
نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ ١٤٥

[آل عمران: ١٤٥]

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى
اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

[التوبة: ٥١]

أهداء

أهدي هذا الكتاب إلى صاحب السمو الملكي:

الأمير محمد بن نايف بن عبدالعزيز آل سعود

مساعد وزير الداخلية

صاحب الموقف الإنساني النبيل، والعطاء الجزيل، الذي كان له معنا في كارثة غرق عبّارة السلام ٩٨، وقفة ودور بطولي لن ننساه ما حيينا، حيث كان سموه معنا لحظة بلحظة في هذه المحنة، وقام ببذل الجهود، لتذليل كل العوائق التي واجهتنا بعد الغرق، وتلمس كل ما نحتاج إليه، وأمر بتوفيره لنا... حتى عاد كل منا إلى أهله سالمًا.

هذا الكتاب... هدية متواضعة لعلها تنال رضاكم يا سمو الأمير، ولعله لا يفي بحقك علينا، ولا يعبر إلا عن شيء بسيط من حبنا لك، وبعض مما تكنّه صدورنا تجاهك من الحب والوفاء^(١).

(١) في الفصل السادس عشر شيء من الموقف السامي والنبيل للأمير محمد بن نايف في كارثة غرق العبّارة السلام ٩٨.



المحتويات

٩	مقدمة
١٣	﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾
٢٥	بداية الرحلة
٣٧	الخروج من الميناء وإبحار السفينة
٥١	لحظات صبر واختبار والسفينة تحترق...
٦٥	لحظات حرجة
٧٣	صراع مع الأمواج من أجل البقاء
٨١	البرد والظلام وضربات الأمواج
٩١	﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾
١٠١	القارب يتمزق والموت يلتقط الأرواح
١٠٧	غروب الشمس وصيحة الأمل
١١٥	سفينة النجاة... أين رفيق السفر؟
١٢٩	دخول مستشفى الغردقة
١٤١	البحث عن سعود
١٤٩	سفاجا



١٦٥.....	العودة للأهل والوطن
١٧١.....	موقف نبيل للأمير محمد بن نايف
١٧٩.....	من المسؤول عن الكارثة؟
١٨٥.....	الخاتمة



مقدمة

تمر السنون، وتهب رياحها على أجسادنا، فتطفئ نور أشخاص، فيغادرون الدنيا، وتشعل شموع آخرين، في عالم لا تحتفظ ذاكرته إلا بما هو مؤلم وحزين، ليقدمه هدية تاريخية لمن يدخل هذا العالم.

عبارة السلام المصرية التي غرقت عام ٢٠٠٦م لم تستطع عجلة السنين والشهور أن تمحوها من ذاكرة من مسَّته هذه المأساة التي مات فيها ١٠٧٠ نفساً ولم ينجُ من غرق هذه العبارة سوى ٤١٤ ناجياً، كُتب لهم العيش بعد أن أمضى معظمهم اليوم واليومين والثلاثة بين الحريق والغرق في البحر ومواجهة أمواجه المتلاطمة وشدة برودة مياهه، في ظل تأخر الإنقاذ.

إن (فيلم) فاجعة عبّارة السلام -إن صحت التسمية- أخرج لمن عايشوا هذه القصة الكثير من التساؤلات حول حريق لا ينطفئ، وإنقاذ لا يأتي، وقبطان هارب، بعد أن رفض تحرير قوارب النجاة؛ لينجوبها الناس، وملاحين يرفضون توزيع ستر النجاة، ما جعل الغرق في هذه الكارثة يبدو متعمداً.

كثُر الكلام حول ذلك، وأن السفينة كانت متهالكة، وأن غرقها



فرصة للحصول على التعويضات، أو فرصة لإشغال العرب عن حرب إسرائيل وجنوب لبنان آنذاك.

الكلام حول العبارة، وهل غرقها كان متعمداً أم غير ذلك، لن ينفع من ماتوا، ولكن يظل حديثاً لم يقفل بعد، حيث إن المحكمة الكبرى في القاهرة أعادت فتح ملف القضية من جديد، خصوصاً بعد سقوط الحزب الحاكم، الذي يعد مالك العبارة من أعضائه، كما يعد من أعضاء مجلس الشعب المحسوبين على الرئيس المصري السابق محمد حسنى مبارك آنذاك، والمعينين من قبله، كما أنه من خلال إعادة المحاكمة بدأت تظهر أسماء متورطة في هذه الكارثة من عائلة الرئيس المخلوع محمد حسنى مبارك وتورط بعض الأسماء البارزة في حكومة مبارك، كما بدت مؤشرات ودلائل تدل على الاستهتار والتواطؤ في عدم إنقاذ ركاب العبارة وتركهم يواجهون الموت وكأنهم جمادات وبضائع تجارية يمكن أن تستبدل بغيرها.

يمكنك -أيها القارئ الكريم- أن تقرأ في هذه القصة تجربة شخصية مكثفة، كانت فيصلاً في حياة إنسان، قسمت حياته قسمين عاشهما راوي القصة، حتى إنه لم تعد حياته ما بعد التجربة، هي حياته ذاتها ما قبل التجربة.

هذا منظور يمكن أن يلامسه من يكتفي بظواهر القصة وسطحها.



ولكنها من منظور آخر، هي قصة الخلق، وقصة الحياة والموت الأزلية، حين ترفع يد العناية الإلهية عن بصر الإنسان غشاوته، عبر تجربة نوعية وفارقة، فيستبين له الخيط الرفيع غير المرئي بين الحياة والموت، في لحظة واحدة.

حاولت في هذه القصة أن أسرد كل ما مررت به في هذه الرحلة الكارثية؛ لتكون قصة واقعية حقيقية، تجعل من يقرأها يعيش معي أدق تفاصيل رحلة عبّارة السلام ٩٨ التي غرقت بتاريخ ١٤٢٧/١/٣ هـ الرابع من شهر فبراير ٢٠٠٦ والتي راح ضحيتها ١٠٧٠ نفساً ماتت غرقاً، ولكن يعيشها معي دون غرق أو خوف، ودون أن تتبلل ملابسه بمياه البحر على الأقل.

فاستعدوا للسفر واحزموا حقائبكم...



﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

[يس: ٣٦]

الفصل الأول



تأتي الأقدار من وراء الغيب، متخفية بأشكال نجهلها، ولا ندرك ما وراءها، ولا ندرك أبعادها، برغم أنها قريبة منا، بل تحيط بنا، ملاصقة لنا، وهذا ما كان شأني، أنا وابن العم والصديق (سعود)، حين فكرنا في قضاء الإجازة خارج المملكة، ولو تحررنا الدقة فإنها لم تكن إجازة بمعنى الكلمة، فقد كانت أسبوعاً واحداً لا يكاد يكفي حاجتي من النوم، خاصة إذا كان المرء صحفياً - كما في حالتي - لا يكاد يهدأ... حتى يواصل الركض بحثاً عن سبق صحفي أو تحقيق صحفي لقضية أو مشكلة ما، أو كتابة مقال ما، أو بحثاً عبر الحوارات والاستطلاعات الصحفية مع المتخصصين حول ظاهرة اجتماعية أو اقتصادية، تطفو على سطح حياة الناس اليومية، ولم تكن حاجة صديقي أيضاً للراحة والترويح عن النفس تقل عن حاجتي، فهو يجتهد في سبيل تحقيق طموحه العلمي الأكاديمي في الجامعة، يهلك نفسه بحثاً واستذكراً، وقد كان هذا دأبه منذ الطفولة وعبر مختلف مراحل التعليم.

نقطة انطلاقنا في هذه الإجازة كانت من محافظة جدة، عروس الساحل الغربي للمملكة العربية السعودية؛ حيث توجهت إليها قادماً من الرياض، بعد أن كنت أنوي التوجه إلى دولة الكويت لحضور



مهرجان هلا فبراير الشعري، وتغطيته صحفياً، ولكن وفاة الشيخ جابر الصباح رئيس دولة الكويت -رحمه الله- غيرت خطتي، وألغى المهرجان، فألغيت فكرة السفر إلى دولة الكويت.

فراودتني فكرة الذهاب إلى مقرر رئاسة صحيفة عكاظ في محافظة جدة التي أعمل فيها محرراً في القسم الثقافي منها؛ لإنجاز بعض الأعمال التي عادة ما تكون بين الموظف وإدارته، ولتجديد العهد والتواصل مع زملاء المهنة التي امتهنتها مبكراً قبل أن أنتمي إلى قبيلة المعلمين، وأود الإشارة هنا إلى أن عملي في الصحيفة أصبح هواية وعملاً إضافياً أحببت ممارسته بجانب عملي الرئيس في قطاع التعليم، ولا أظن الفرق بين المهنيتين كبيراً على صعيد الهدف المنشود منهما اجتماعياً، فكلتاهما تسعيان وراء تنوير المجتمع، وتزويد أفرادها بالمعلومة، والأدوات المعرفية.

في النهاية، والسبب رئيس آخر جعل جدة وجهتي ونقطة انطلاق رحلتي، هو وجود الأصدقاء (سعود) و(عامر) و(فالح) فيها، فقررت السفر إلى جدة؛ لقضاء الوقت معهم؛ حيث كان (سعود) وأخوه (عامر) يدرسان في جامعة أم القرى في الدراسات العليا، و(فالح) نسيبهم كان يعمل في قوات الطوارئ هناك، وكانوا يسكنون جميعاً في شقة بحي الرحاب بشمال جدة، وهذه الشقة لا يمكن أن يطلق عليها إلا شقة الضيافة، وأجمل ما فيها سكانها البشوشون الكرماء.



جدة التي تعج بحركة لا تهدأ ليلاً أو نهاراً، وبوصفها مدينة تجارية فإن موقعها ونوافذها البحرية والبرية والجوية التي تستقبل حركة الآلاف على مدار ساعات يومها وصولاً ومغادرةً طيلة أيام العام، يجعلها المدينة الأكثر تجدداً وحركةً بين مدن المملكة، وهذا يجعل مطارها الأكثر حركة بين مطارات المملكة، ويجعل إمكانية الحجز فيه أكثر حظاً من غيره لتكون مركز انطلاق من أراد أن يسافر خارج المملكة.

وصلت مطار محافظة جدة قادماً من الرياض، وتوجهت مباشرة إلى شقة الشباب في حي الرحاب، وأقمت عندهم كالعادة إقامة جبرية - ودية- وأخبرتهم بنيتي السفر؛ للتمتع بالإجازة خارج المملكة.

أما (عامر) و(فالح) فاعتذرا عن السفر خارج المملكة بداعي ارتباطهما في بيشة؛ حيث كانت عائلتهما الصغيرتان تقيمان في بيشة، وسيذهبان لهما، فكلاهما لا يزالان يعيشان السنوات الأولى من الزواج، وليسا مثلي أنا و(سعود) اللذين لا تزال الحياة الزوجية عندنا مجهولة، ولا تزال نعيش حياة العزوبية.

أيّد (سعود) السفر معي، وأخذنا نفكر: أين سنسافر؟

وأصبحت خيارات أماكن قضاء الإجازة مثار جدل حيوي لا يهدأ، فبعد أن أُلغيت سفري إلى الكويت لم يعد لدي وجهة معينة، وفجأة قفزت مصر إلى ذهني (سعود) خياراً بديلاً أفضل من كل



الوجهات الأخرى، ووجدت الفكرة صدى مريحاً في نفسي، فهي عندي مصر الآثار التاريخية، والمكتبات العريقة، وقرى الفلاحين الطيبين، بشهامتهم وبأخلاقهم الكريمة، ومعرض الكتاب والحوارات الثقافية الثرة على هامشه، وشيء آخر ربما كان له أثر مباشر في ارتياحي نفسياً بأن تكون مصر بديلاً مناسباً لقضاء إجازتنا فيها، حيث إنني في سنوات ماضية استأجرت أنا وصديق الطفولة والدراسة (عبدالرحمن) مزرعة في مسقط رأسي ببشة، وكان يجاورنا فلاح مصري يعمل في المزرعة التي بجوارنا، وهو رجل تتجسد فيه كل سمات الفلاح المصري البسيط وخصاله، رجل على الفطرة، هادئ الطبع، متدين، كنا نرتاح كثيراً لصحبته، وكان هو يبادلنا الشعور نفسه، كنا نستمع بشغف إلى حكايات الفلاحين ونوادرهم التي يحكيها بحب، وكأنه يسترجع الأشخاص الذين فارقهم، والأمكنة التي باعدته ظروف العمل عنها.

شيء ما كان يأسرك وأنت تستمع إليه في هدوء الليل، بين أشجار النخيل التي أغفت مستسلمة لأحلامها، وهو يستدعي صور تلك الحكايات المصرية الجميلة من ذاكرته، فتكاد ترى أطفال قريته وهم يلعبون بين أزقة بيوت الفلاحين، ونساءهم النشيطات وهن يجلسن بين أعواد القمح، ويقطفن كرات الطماطم الحمراء، والملوخية والجرجير، وهن متضاحكات يتبادلن النكات العفيفة البريئة.



وأيضاً كان يتحدث بفرام عن جودة الطبخ والمأكولات المصرية ولذتها... باختصار، لقد زرع (العم سلامة) بشخصيته الطيبة وبحكاياته الجميلة في نفوسنا حب مصر، وكشف لنا عن مصر الأخرى، مصر الفلاحين التي أحسنها قريية إلى نفوسنا، وليست مصر التي شوهتها الأفلام المصرية، وصورتها كأنها غابة مليئة بالجرائم، كما هي مليئة بالفساد والرقص والنهب، وركز غراس هذا الحب الذي تولد فينا جمال بعض التقاليد الاجتماعية، وتشابه البيئة الزراعية التي نعيش مثلها في بيشة، فبيشة، وخصوصاً عندما كنا أطفالاً، كانت جنات خضراء، وأشجار نخيل باسقة جميلة، ولكنها في الآونة الأخيرة تعرضت لموجة جفاف أفقدتها ثلثي مسطحاتها الخضراء، فكان عندما يحدثنا (العم سلامة) عن حقول مصر كأنه يصف لنا بيشة قبل نحو خمسة عشر عاماً، عندما كنا أطفالاً.

أذكر هنا أن حلماً راودني في المنام قبل سنوات، وربما بتأثير من حكايات (العم سلامة)، ولكن الغريب في الأمر أن الحلم كما لو كان ليلة أمس. ففي حلم تلك الليلة رأيت نفسي نائباً لرئيس الجمهورية يومها محمد حسني مبارك، وكان هو في رحلة رئاسية، ومن ثم كان لا بد أن أتحمل مسؤولية الرئاسة في غيابه، إلا أنني اتصلت به هاتفياً طالباً إعفائي من المنصب ومسؤوليته، ولكنه رد عليّ بصوت آمر وبحسم بالرفض، قائلاً لي: «ابق، كلها أربعة



أيام وراجع»، بعدها بقليل جاءت سيارة رئاسية، وأخذتني في جولة تفقدية إلى قرى الفلاحين وحقولهم ومزارعهم التي بدت لي في ذلك الحلم رائعة وساحرة الخضرة، ولا أجد الآن، مثلما لم أجد عند يقظتي تفسيراً لهذا الحلم، هل هو بتأثير من حكايات (العم سلامة)، أم أنه كان مؤشراً لما سيحدث فيما بعد، وما حدث على العبارة المصرية!، الله وحده يعلم.

على كل، لم تكن مصر في واد الخيارات الرئيسة بالنسبة لي، ولكن فكرة السفر إليها وجدت صدى في نفسي؛ للأسباب التي ذكرتها؛ إلا أننا بعد أن اتفقنا على أن نقضي الإجازة الصغيرة في مصر، فشلنا في إيجاد حجز جوي، ولم يفاجئنا هذا كثيراً؛ حيث كان موعد سفرنا يصادف عودة الحجاج المصريين إلى بلدهم في آخر شهر ذي الحجة، وأيضاً سفر العديد من السعوديين؛ لقضاء العطلة في مصر، وذهاب المعلمين المصريين المتعاقدين؛ لقضاء الإجازة في بلدهم.

حاولنا، وبحثنا عن حجز طيران بشتى الطرق كان ذلك يوم الخميس، واستعنا في ذلك بعلاقاتنا للحصول على حجز مؤكد للسفر، واشترك معنا أيضاً الأصدقاء في البحث، فقفزت إلى ذهني فكرة البحث عن بلد بديل؛ لنقضي فيه الإجازة، وطرأت في أثناء ذلك فكرة التوجه إلى (جاكرتا) عاصمة إندونيسيا، وفعلاً توجهت إلى أحد مكاتب السفريات، فكان أقرب حجز مؤكد على



الخطوط الجوية السعودية إليها هو يوم الثلاثاء، وكان (سعود) في هذه الأثناء يواصل جهوده واتصالاته؛ للعثور على حجز جوي إلى القاهرة، فوجد رحلة تقلع في نهاية الأسبوع الثاني يوم الجمعة عن طريق (جدة - عمان - القاهرة)، ولكنها لم تكن تتناسب مع قِصَرِ الإجازة؛ لذا لم تأخذ وقتاً طويلاً في مناقشاتنا، فاستبعدناها من قائمة الخيارات، كما قمنا بإلغاء الحجز إلى جاكرتا؛ لبعدها وطول وقت السفر إليها وقصر مدة الإجازة.

وفي تلك الأيام كنت أتردد على المقر الرئيس للصحيفة في جدة، وتحديدًا مقر القسم الثقافي، وكنت حينها أستحث الزملاء على البحث معي عن حجز جوي إلى مصر، وهكذا كلمت الزميل والصديق طالب بن محفوظ بأن يشفع لنا عند شقيقه الموظف في الخطوط الجوية السعودية، علّ وعسى أن يوفقه الله بالعثور على حجز لنا، ولكنه لم يجد.

وفي أثناء سعيي هذا اقترح علي الزميل نضال قحطان اقتراحاً استبعدته حينها، إلا أنه كان بالفعل هو الاقتراح المناسب، ولكني أدركت هذه الحقيقة بعد فوات أوان العمل بها، حيث اقترح علينا ألا نتعب في البحث عن حجز مؤكد، قائلاً: «توجهوا إلى المطار من فوركم، وستجدون مقاعد على أي طائرة متوجهة ليس إلى مصر وحدها، بل إلى أي مكان في العالم»، وكان يقصد أننا سنجد مقاعد خالية عبر كاونتر الانتظار للركاب المتخلفين عن الرحلة.



ولكننا لم نشغل وقتها أنفسنا بالتعامل بجدية مع هذا الرأي،
برغم أنه اتضح لنا فيما بعد مدى جدواه!

أغلقت الأبواب أمام خيار قضاء الإجازة خارج المملكة، ففكرنا
في قضائها بجدة مرة أخرى، إلا أن جدة لم تعد مجدية، حيث إن
(عامراً) و(فالحاً) سافرا إلى بيشة، وأصبحت الشقة شبه خالية.
كما أن الصديق عبد الله عبيان الذي كان همزة الوصل بين كثير
من الأصدقاء كان في رحلة مع الوفد الصحفي الذي يرافق خادم
الحرمين الشريفين في رحلته إلى دول شرق آسيا، وأذكر أنني أرسلت
له بالجوال أبياتاً نبطية، وقد أخبرني لاحقاً بأنها أتعبتة كثيراً بعد
علمه بفرق العبارة وهذه الأبيات للشاعر سلطان الهاجري، وأنا
أعتبرها من أفضل ما قيل في السؤال عن الصديق، وقد حرفتها
بتصرف من دبي والعين إلى الهند والصين، ولعلنا -نمون- على
أبي وسام في التعديل والتصرف الحبي، فأرسلت له:

(بالله يا أهل الهند.. ولا هل الصين)

من قال يبشر به عطيته بشارة

المهم باتت جدة غير مجدية لقضاء الإجازة فيها، فالمدينة تعمر
وتحلو بمن تحب، لا بمبانيها ولا بملاهيها، وبقينا أمام أحد خيارين:
إما أن نعود إلى بيشة، ونلغي فكرة السفر، وإما أن نبحت عن حجز
مؤكد إلى مصر، وفي أثناء ذلك طرأت علينا فكرة السفر بالعبارة
إلى مصر، ولكننا لم نكن مقتنعين بها فعلياً، كان ذلك يوم الاثنين،



وفي اليوم اللاحق الثلاثاء ذهبنا للتسوق في سوق المحمل جنوبي غرب جدة، ووجدنا أنفسنا في أثناء جولتنا بالقرب من أحد مكاتب حجز العبارات (السفن)، فتوجهنا إلى المكتب؛ للحجز على أقرب باخرة. قال لنا الموظف، وهو يرسم على وجهه ابتسامة عريضة: لا تحتاجون إلى حجز - لحسن حظكم -، فالعبارة التي ستغادر يوم الخميس يوجد فيها أماكن شاغرة.

قلنا: ومتى ستبحر، يا ذن الله؟

فأجابنا: بأنها ستبحر عند العاشرة صباحاً، وعند السادسة مساءً ستكونون في مصر.

وقبل أن نغادره استوقفنا، وهو يقول: إذا كنتم لا تريدون السفر على هذه الباخرة لأي سبب من الأسباب، فهناك اللنش السريع سيغادر إلى مصر يوم الجمعة.

سألناه: وفي أي ساعة سيغادر؟

فأجاب: في الثانية ظهر الجمعة، وهو سريع لا يستغرق سوى ثلاث ساعات ليصل إلى سفاجا.

شكرناه، وخرجنا من المكتب، ونحن نفكر، ونعيد التفكير في السفر بالباخرة، ولكننا استبعدنا خيار اللنش بشكل نهائي؛ حيث إن يوم الجمعة مستبعد من قبل لقصر مدة الإجازة، والعبارة ستبحر قبله بيوم، وهذا لا يلزمنا في إجازة قصيرة مثل هذه، ومن ثم عدنا للشقة، ونحن لم نقرر بشكل نهائي السفر بحراً، ولا نزال مترددين.



عدنا إلى شقة الرحاب التي باتت خالية، بعد أن سافر الشباب إلى بيشة، وتركوا فراغاً واضحاً، وفي اليوم اللاحق يوم الأربعاء استيقظنا من النوم، وكنا في حاجة إلى حسم الموضوع، ولم يكن لدينا حينها خيار مطروح دون عوائق سوى العبارة، فأصبحت نية السفر بالعبارة حاضرة، واتفقنا على أن ننطلق الساعة التاسعة ليلاً؛ حيث نصل في الصباح إلى ضباء، ونأخذ (كابينة) خاصة، وننام فيها.

بدأ كل منا يجهز حقيبته وحوائجه. خرجت بعد صلاة المغرب إلى الحلاق، ثم أجريت اتصالاً بصديق الطفولة (عبد الرحمن) الذي كنت أسافر معه دائماً، وكنا نخرج سوياً منذ كنا في سن الحادية عشرة، وهو الذي تكونت عنده صور مشابهة للتي عندي من حكايات (العم سلامة) الذي كان جارنا في المزرعة، ولكنه اعتذر عن عدم الذهاب معنا، فقد كانت له ارتباطات عملية واجتماعية لا يستطيع تأجيلها، وقبلها اعتذر صديقي سيف وأبو يحيى عن عدم السفر في هذه الإجازة، وذلك عندما كنت في الرياض، واعتقدت باتصالي بـ(عبد الرحمن) بالتحديد أنه سيذهب معنا، ولكن حدسي لم يصدق، وكان هناك أصدقاء كثر أيضاً، قريبون من القلب، لكنني لم أتصل بهم، واتصلت فقط بمن توقعت منهم الموافقة على مرافقتي في هذا التوقيت.



بداية الرحلة

الفصل الثاني



بدأت إجراءات الاستعداد للسفر؛ حيث ذهبت لشراء بعض الحاجيات، وفي الطريق مررت بمطعم قريب منا يجيد طهي (المطبي) والأرز، فأخذت عشاءً يسد جوع اثنين آخرين معنا؛ حيث وددت ألا نتوقف في الطريق إلا لتعبئة الوقود فقط، وذلك لكي نلحق بالسفينة قبل إبحارها.

أخذت العشاء، وتوجهت للشقة، ووجدت (سعوداً) قد عاد حينها، تناولنا العشاء وحملنا حقائبنا في السيارة، وكان هناك شيء مهم بالنسبة لنا نحن الاثنين، وهو يعادل أهمية حقائبنا؛ ألا وهو (ترمس) الشاي الذي وضعناه بيننا، ومن ثم انطلقنا بعد أن قرأنا دعاء السفر -ولله الحمد-.

كانت المسافة بين جدة وميناء ضباء تبلغ نحو ١٥٠٠ كم، وتستغرق بالسيارة نحو عشر ساعات، وقد تأخرنا قليلاً في جدة؛ لفحص السيارة وشراء بعض الحاجيات التي أخرجتنا إلى الساعة العاشرة والنصف مساءً، والغريب في الأمر هو سعادتنا بالسفر وسرورنا الشديد به، ولست أعرف سبب هذا السرور الكبير، ولعلها فرحة انتهاء فترة الحيرة وبداية اتخاذ القرار.

كانت الأمور تسير بشكل مثالي، حين انطلقنا تلك الليلة، ليلة



الأربعاء، فمئذ اللحظة التي اتخذنا فيها قرار السفر بالباخرة، وبدأنا نجهّز أنفسنا للتوجه إلى ضباء، كانت كل تحركاتنا تتسم بالسلاسة والسهولة، حتى الطريق الساحلي بين جدة وضباء الذي اشتهر بكثرة الإبل التي تعبره ليلاً متسببة في الكثير من الحوادث التي راح الكثيرون ضحايا بأسبابها، كان الطريق وكأنه خالٍ منها، وكأن الرعاة قرروا ليلتها الإضراب عن الرعي، وكان المناخ -على غير العادة في مثل تلك الأيام من السنة- معتدلاً؛ بل في غاية اعتداله، فلا مطر ولا برد قارص ولا غبار، ولا شيء مما يكدر مسار رحلتنا التي اتخذنا فيها طريق الساحل (جدة - المدينة - ينبع - ضباء).

وبعد أن تجاوزنا محافظة ينبع بمسافة، أشرقت علينا شمس صباح يوم الخميس، وكان طريقنا يسير بموازاة البحر، وكان المنظر جميلاً جداً حينها، وخصوصاً على شواطئ بكر؛ لم يغير ملامحها البشر، وكنا نتمنى أن نبقى على هذه الشواطئ قليلاً، ولكن خشينا أن نفوتنا العبّارة؛ حيث كان البحر هادئاً بشكل واضح، وللمرة الأولى أرى شجرة السمر تعيش على شاطئ البحر، وهي شجرة صحراوية مشهورة، تكثر عندنا في بيشة، وهذا المشهد استوقفنا لغرابته، ومن ثم واصلنا هذا الطريق الجميل بمنأزله وهدوئه، حيث لم يكن الطريق أيضاً مزدحماً، حتى وصلنا إلى محافظة ضباء قرابة التاسعة والنصف صباحاً بيسر وسهولة.

وقلقلنا أن تكون العبّارة أبحرت، أو أن تكون ممتلئة، ولما كان



موعد إبحار العبّارة حسب ما أعلمنا موظف الشركة في جدة في العاشرة صباحاً؛ فقد أخذنا طريقنا إلى الميناء ركضاً؛ إذ لم يبقَ على إبحارها سوى نصف الساعة، أخذنا طريقنا إلى مكتب الحجز لاهئين، ووجدنا أمامنا طابوراً بسيطاً من المسافرين. حاولت الاستعجال وعدم الانتظام في الطابور، وأنا أقول للموظف: «لو سمحت العبّارة بتفوتنا، سفينتنا على وشك الإبحار»، ولم أعلم أن كل هؤلاء الذين في الطابور سيركبون معنا على متن العبّارة، وأن موعد الإبحار قد تأخر.

فرد الموظف: ستدرك العبّارة، فلا داعي للقلق.

كانت أعداد المسافرين كبيرة في ميناء ضباء ما يشعر بك بأن هناك أكثر من سفينة ستبحر، ولم نكن نتوقع أن كل هؤلاء الركاب هم معنا في سفينتنا نفسها.

قبل أن نصل الميناء اتصلت بأحد العمال المصريين في بيشة، وهو ابن العم سلامة، ويدعى أسامة، حيث كنت أود أن أسأله عن العبّارة؟ وما أفضل أدوارها وكباتئنها؟ فذكر لي أن أفضل ما فيها هو الغرفة الخاصة في الدور الأول.

وصل دوري في الطابور أمام الكاونتر، واشترت التذاكر، وحجزنا غرفة خاصة مكونة من سريرين، وسريعاً أخذنا طريقنا إلى مبنى المغادرة الذي كان مكتظاً بالناس، يتحركون هنا وهناك، يتخبط بعضهم ببعض والذي أصبح كخلية نحل تعجّ بالحركة التي



لا تهدأ، ولكن على شيء من الفوضى التي يثيرها أي تجمع بشري في مثل هذه الأحوال.

كانت الصالة تعجُّ برنين الجوالات، حيث لكل مسافر من ينتظره، ويسأله: متى يصل؟

ولك أن تنظر لعدد كبير من العاملين المصريين الذين يعملون في المملكة، وقد بان على أعينهم الشوق إلى أهاليهم، خصوصاً المزارعين منهم، وهم الفئة التي تعمل برواتب بسيطة في المملكة، وتكون مدة غربتهم خارج وطنهم طويلة؛ حيث إن بعضهم يمضي عليه العام والعامان؛ لكي (يحوش قرشين) يسد بهما رمق أسرته، ويحقق بعض طموحاته، فكنت أرى غالب الركاب منهم، أولئك الذين يلبسون الجلابة المصرية والطاقيّة المصرية الجميلة، والسفر بالعبارة أيضاً يعد بالنسبة إليهم أقل بكثير من السفر بالطائرة، فهو مناسب لهم ولرواتبهم البسيطة.

أيضاً كان من ضمن المسافرين على هذه الرحلة عدد كبير من العائدين من الحج، ولك أن ترى هدايا الحجاج بارزة في أروقة الصالة، ولعل بعضها متشابه، وكأنهم اتفقوا في التسوق، وفي شراء الهدايا من سوق واحدة، فلا يكاد يُفرّق بينها؛ لتشابهها.

وأيضاً لعل هذه السفرة عند بعض هؤلاء الحجاج هي الأولى التي يخرجون فيها من بلدهم (مصر)، فتجعل شوقهم كبيراً، وعواطفهم جياشة للعودة إلى بلدهم.



الصالة كانت تفوح بأشواق المسافرين لمقابلة أهاليهم وأحبابهم في الجهة الثانية من اليابسة، ولولا البحر الذي يفصل بينهم لامتطى بعضهم قدمه وحنينه لأهله، بدلاً من الانتظار وسط هذه الزحمة الهائلة في صالة الانتظار؛ حيث وصل عدد المسافرين على هذه الرحلة إلى ١٥١٤ مسافراً.

أنجزنا حجزنا، ولم يعد لدينا ما نفعله غير الصعود إلى الباخرة، وأخذنا قسطاً من الراحة على مقاعد صالة المغادرة في انتظار الصعود إلى الباخرة؛ حيث كنا في حاجة إلى شيء من الهدوء بعد عناء رحلتنا الطويلة من جدة على مدى ساعات طويلة من القيادة، إلا أننا فوجئنا عند الساعة الثانية عشرة بأن الناس يخرجون من الصالة متذمرين، وعندما سألنا أحدهم؟

قال: تم تأخير الرحلة، وعندما سألنا الموظف المسؤول؟ قال: إن موعد الإبحار قد تأخر إلى الرابعة عصراً.

لم نجادله كثيراً؛ لأن الأمر في نهايته لا يعود إليه، فهو مجرد ناقل، فتوجهنا بالسيارة إلى مطعم بالقرب من الميناء، وتناولنا وجبة الغداء والذي كان ممتلئاً بالزبائن، وكان مطعماً بخارياً؛ إلا أن الشيء الذي خفف من وطأة الاستياء من هذا التأخير غير المحسوب، كان عاملاً طبيعياً غير متوقع أيضاً، حيث تجمع السحاب مخفياً الشمس وراءه، وأخذ المطر يهطل خفيفاً ليصبح الجو جميلاً، ولعل فرحنا وانشراحنا بهذا التغير المناخي كان له



تأثير في التخفيف من إحباطنا الناجم عن تأخير الرحلة، خصوصاً أن المطعم كان مجرداً بالزجاج؛ حيث إننا نرى ما خلفه، مما جعلنا نستمتع ونطيل البقاء في المطعم، ومن ثم عدنا إلى الميناء حوالي الثانية والنصف ظهراً لنبحث في مواقفه عن مكان ملائم لسيارتنا، حيث قررنا أن نتركها في الميناء، ونسافر إلى مصر من دونها، ومكثنا فيها لنأخذ قسطاً من الراحة ريثما تتحرك الباخرة.

لم نشعر بالراحة في النوم في السيارة، فاستقر رأينا على العودة إلى صالة المغادرة لنحاول إقناع مسؤول الكاونتر أن يسمح لنا بالصعود على ظهر العبّارة، خاصة أننا مسافران من دون غفش، وليس معنا عائلة، وكانت الصالة -كما يمكنك أن تتوقع- مكتظة، وتعجُّ بالأصوات والضوضاء؛ حيث إن عدد ركاب الباخرة بلغ ١٥١٤ راكباً، وكان مؤشر ساعة الصالة يشير إلى الثالثة، ولم يتبقَّ سوى ساعة على موعد الإبحار حسب الموعد الجديد.

وجدنا موظفاً سعودياً فشرحنا له وضعنا، وأخبرناه بأننا لا نحمل معنا سوى ما بأيدينا، وهي حقيبة واحدة لكل منا، وليس معنا غفش، فتكرّم مشكوراً بالسماح لنا بالصعود، فكنا أول الصاعدين على ظهر الباخرة، قرابة الرابعة عصراً من يوم الخميس ١٤٢٦/١/٣ هـ الرابع من شهر فبراير ٢٠٠٦.

وعند مرورنا في الطريق إلى الباخرة كنا نجد السير صعباً وسط جبال من الحقائب والحاجيات التي كانت مغلقة ومغلقة جيداً



وعليها أسماء مدن وأرقام جولات وعناوين منازل، وهذا لا يكون مستغرباً في ظل وجود أكثر من ١٥٠٠ راكب، منهم ١٤٠٠ مصري، كل واحد منهم يحمل معه على الأقل إضافة إلى أغراضه الخاصة هدية أو هديتين لأحبته وأهله هناك في مصر، ولعل كل واحد أيضاً قد تقصّى في اختيار الهدية وتغليفها غاية الجهد؛ لكي تصل سالمة معه إلى أهله هناك.

صعدنا الباخرة عبر ممشى ليس به سلم (درج)، ولعل هذا الممشى في الأصل مخصص لنقل البضائع وليس للركاب، حيث كنا نرى الشاحنات والرافعات تدخل وتخرج في السفينة، حيث إن مؤخرة السفينة كانت مفتوحة ما يسهل إركاب السيارات والبضائع فيها، وصعدنا نحن على ممشى جانبي أملس مائل للأعلى وكأنه لصعود عربات العفش، أخذنا في الصعود، وكنا من أوائل من ركب الباخرة.

كانت أمامي سيدة تصعد إلى الباخرة، ولم تلبث حتى رأيتها تسقط نحوي، وترطم بالأرض محدثة صوتاً قوياً؛ حيث ترحلت من جراء أرضية المصعد الملساء، وكأن هذا مع عدم التنظيم في صالة المغادرة، وتأخر الإبحار مؤشراً إلى عدم الاهتمام والعناية بالباخرة وركابها، وبالميناء عموماً، نهضت السيدة دون أن تصاب بأذى، وفتحت لنا الطريق في الصعود حتى دخلنا الباخرة، وأخذنا نبحث عن غرفتنا بعجلة؛ حيث كنا نريد أن ننام، فنحن مرهقون جداً، ولم نلم منذ يوم الأربعاء.



وفي أثناء جولتنا للبحث عن غرفتنا صادفتنا امرأة خمسينية على الأرجح، تبحث أيضاً عن غرفتها، متناقلة بحمل (شنطة) كبيرة، كنت أريد أن أعرض مساعدتي عليها، ولكنها بادرت بطلبها مني، وسألني أن أساعدها على حمل الحقيبة التي لم يكن حجمها يشير إلى وزنها، فظننتها خفيفة الوزن، ولم أكد أرفعها عن الأرض حتى أدركت مدى تورطي، فقد كانت ثقيلة بشكل غير متوقع، وكأنها هربت بها من ميزان العفش بالميناء، وكدت أسألها ما إذا كانت تحمل في شنطتها شخصاً ما!

لم يكن ثقل الحقيبة وحده هو مشكلتي الوحيدة في تلك اللحظة، ولكن المرأة راحت تبحث عبثاً عن غرفتها، وأنا أجرجر أقدامي خلفها تحت ثقل الحقيبة من مكان إلى آخر، حتى يئست من إيجاد غرفتها، وأخذت تنتظر لعل هذه القلعة المليئة بالغرف يكون فيها موظف يدلها أين تقع غرفتها؟

(سعود) الذي لم يكف عن البحث كان قد عثر على الغرفة بعد بحث مضن، دخلنا الغرفة ففوجئنا بأنها غرفة صغيرة وضيقة للغاية، قفصاً كانت أكثر منها غرفة مزدوجة لشخصين، إذ لا تتجاوز مساحتها أربعة أمتار مربعة، وبرغم ذلك فقد كان فيها سريران صغيران أحدهما فوق الآخر في هذه المساحة الضيقة، ولم يكن أمامنا غير التعليقات الساخرة من حال الغرفة، فليس ثمة من تشتكي إليه أو تحتج عنده، كما أن الاحتجاج غير مجدٍ، ولن يغير

من الأمر شيئاً، فاستسلمنا للواقع، ولم نكد نسلم رأسينا للفراس،
(سعود) وأنا، حتى استغرقنا في النوم من شدة التعب والإرهاق.



الفروج من الميناء وابهار السفينة

الفصل الثالث



بدأ الركاب في صعود السفينة، وبدأ كل منهم يتجه حسب حجزه، فهناك من هم في غرف خاصة مثلنا، وهناك من هم على مقاعد السطح، وأبحرت السفينة قرابة الساعة مساءً، وبدأت تشق طريقها في البحر متوجهة إلى ميناء سفاجا، وكنا حين إبحارها نائمين، ولم نشعر بإبحارها من شدة التعب والإرهاق من أثر السفر منذ ليل الأربعاء.

استيقظت من النوم الساعة الثامنة والنصف مساءً؛ حيث نمت قرابة أربع ساعات منذ الساعة الرابعة والنصف عصراً، وحين استيقظت توضأت وخرجت لأداء صلاة المغرب والعشاء قصراً وجمعاً، وخرجت من الغرفة إلى أحد الممرات الكبيرة حيث وجدت جمعاً من المسافرين يصلون جماعة، أخذت موقعي بينهم، وبعد أداء الصلاة وتبادل التحايا والأحاديث مع بعض المصلين، أخذت أتجول في الباخرة، وأخذت طريقتي إلى مطعم الباخرة الذي لم يكن بعيداً من غرفتنا، حيث إن الجلوس فيه يعد أفضل من جلسات السطح المطل على البحر الذي لم تكن تسمع فيه سوى أصوات أمواجه وهي تضرب جانب السفينة، وصوت محركات الباخرة التي تشق طريقها بين الأمواج، ولعل الهدوء النسبي في المطعم،

ورائحة الطعام، وحركة بعض مرتاديه تعطي جو المطعم شيئاً من الدفء، فالجو خارجه كان بارداً للغاية، وفكرت أن أعود إلى الغرفة وأصطحب (سعوداً) معي إلى المطعم؛ للتمتع بالجلسة فيه بدلاً من جو الغرفة الخانق والسطح البارد.

كانت السفينة كالمدينة المتحركة، مليئة بالركاب والحركة، فالأطفال يلعبون مع بعضهم في جو من المرح، كأنهم في منازلهم، وترى الشيوخ في دوائر يتحدثون مع بعضهم بعضاً، وآخرين يأكلون، وآخرين نائمين على الأرض؛ بل إنني وجدت مجموعة من الشباب يلعبون لعبة الورق (بالوت أو لعبة تشبهها)، المهم كانت السفينة تبهر بشكل انسيابي ما يجعل من بداخلها ينسى أنه في البحر، ويجعله يعد الساعات السبعة ليصل إلى ميناء سفاجا؛ حيث إن الزمن الموضوع للرحلة سبع ساعات للوصول من ميناء محافظة ضباء السعودية إلى ميناء محافظة سفاجا المصرية.

عدت إلى الغرفة، فوجدت (سعوداً) لا يزال يغط في النوم، فأخذت أغير ملابسي استعداداً للخروج، بعد أن يستيقظ (سعود)، ولما كنت حريصاً على عدم إيقاظه من النوم؛ لأن جسده كان بالفعل في حاجة إلى ذلك بعد (المشاوير) المرهقة من ليلة أمس حيث لم نرتح قط، وخصوصاً أنه الذي كان يقود السيارة طيلة السفر، ألقى ظهري على السرير، وأخذت أقلب جوالي، وأشاهد مقاطع الفيديو المسجلة عليه.



وبينما أنا لاه مع شاشة الجوال وصوره استيقظ (سعود) فجأة من النوم، وهو يقول منزعجاً: «فيه رائحة دخان!!!!!!ان!»، وكأنني كنت أنا النائم وليس هو، حينها تهادت إلى أذني أصوات صراخ في الخارج يختلط بعضها ببعض، وكلها تردد: «حريقة»، وكنت أسمع هذه الكلمة باللهجة المصرية، وكأنها الآن. فانطلقت مندفعاً إلى الخارج مستطلعاً ما يحدث، والتفت قبل خروجي إلى (سعود) وأنا أقول له: «لا تقلق، سأخرج لأرى ما الذي يحدث، وأعود حالاً».

كانت الساعة حينها قرابة التاسعة، اندفعت متجهاً تجاه الممر الذي كنا نصلي فيه، ووجدت جمعاً من الناس هناك، بينما دخان يخرج من أسفل الدرج الذي يقود إلى الكبائن السفلية في الدور الأرضي، والناس يخرجون من مكان الدخان إلى الخارج، ويهربون، ويصيحون بجزع ورعب: «حريقة... حريقة».

لم أستوعب حجم ما يحدث أسفل الدرج بشكل معقول، ولكنني أصبت بشيء من الدهشة الممزوجة بالرعب، كان منظر الناس وهم يتدافعون بخوف ورعب من أسفل الدرج إلى السطح مشهداً يثير غباراً من التساؤلات الحارقة!

ولكن عبثاً كنت أحاول أن أجد إجابة منهم، فقد كانوا يهربون بجنون تجاه سطح السفينة، ولم يكن حجم الخطر واضحاً في ذهني



لحظتها؛ لذا كنت أسأل من يمرون بي مهرولين عمّا يحدث أسفل السفينة؟ ولكنني لم أتلّق من أحد أي إجابة واضحة.

الجميع كانوا يسعون هاربين إلى السطح، فأخذت طريقي إلى الغرفة، وأنا مندهش من هذا الرعب الذي انتشر بين الركاب بسبب الصوت الذي تسبب فيه قاطنو الطابق الأسفل، الذين كانوا حينذاك أقرب الركاب إلى موقع الحريق؛ حيث كانوا يصرخون، ويهربون إلى سطح السفينة.

عدت إلى الغرفة، وأنا لم أستوعب الوضع بعد، ما بين مصدق ومكذب، كان الموقف هائلاً، وخصوصاً أننا للمرة الأولى في حياتنا نركب باخرة، وكنت أمشي بهدوء سارح الذهن، وأنا أحدث نفسي: «معقولة؟! معقولة سنموت هكذا، بهذه السهولة كل شيء ينتهي؟!».

وعندما عدت وجدت (سعوداً) في انتظاري، وسألني:

- ماذا يحدث في الخارج؟ وما المشكلة؟

- فقلت له وأنا أبتسم: «شكها الليلة تايتنك»، في إشارة لقصة غرق باخرة الركاب الأشهر في التاريخ.

ولكن شيئاً ما دفعني لأن أسترسل قائلاً: «لكني أشعر بأن موعد الموت لم يحن أجله بعد، ربما مرة أخرى، في وقت وظرف آخر، لكنه لم يحن بعد».

ثم قلت، وأنا أضحك: «باقي شويه في العمر».



فيما بعد، وحين تذكرت هذه الكلمات رحت أسأل نفسي: «كيف قتلها؟ ولماذا قتلها في تلك اللحظات تحديداً؟»، ولم أتوصل إلى إجابة عن تساؤلاتي إلى الآن.

ثم قلت لـ (سعود): «ارتدِ ملابس ثقيلة؛ فالجو في سطح السفينة بارد جداً».

وبالفعل أخذنا نلبس ملابس ثقيلة، وخصوصاً أن ملابسنا كانت خفيفة؛ حيث كنت أنوي أن أوقظ (سعوداً)، ونذهب إلى المطعم الذي كان حينذاك دافئاً جميلاً هادئاً (هيهات).

وبالفعل، لبسنا، وخرجنا من الغرفة نتبع الركاب في الصعود إلى السطح الذي وجدناه مكتظاً بالناس، نسأل أحد ملاحي السفينة عن حقيقة ما يحدث؟ فيقول أحدهم: «حريقة بسيطة»، وهذا لسان حال معظمهم، ويبدو أن هذا أشاع شيئاً من الطمأنينة بين الركاب، ولكن صوت مكبرات الصوت التي تنادي على أفراد الطاقم الطبي للبأخرة، وتبلغهم بالتوجه هنا وهناك لإسعاف الحالات الطارئة، والدخان المتصاعد كان يشير إلى عكس ما ينطقون به، وما يبررونه للركاب.

عندما صعدنا إلى سطح السفينة رأينا الركاب متجمعين هنا وهناك، الكل يسأل: «ماذا يحدث؟»، وضجيج أصواتهم لا يجعلك تفهم شيئاً مما يقولون، يلتفتون هنا وهناك ويمر بيننا الملاحون، وهم يسعون، ولا ندري إلى أين هم ذاهبون.



مضيّنا نمشي بين الركاب؛ لنجد مكاناً نجلس فيه، حتى وجدنا جمعاً من الشباب المصريين، سلمنا عليهم مشافهة، وجلسنا بجوارهم، وما لبثنا حتى صلينا صلاة الاستغاثة بالله، فقامت أنا و(سعود) وصلى بنا شاب مصري من هذه المجموعة صلاة الاستغاثة، حيث صلينا ركعتين دون دعاء قنوت، ولعل ثقافتنا الدينية حينها لم تسعفنا في معرفة كيفية صلاة الاستغاثة، ولكن كنت أذكر من بعض القصص العالقة في ذهني عن يقع في أزمة أو مصيبة كبيرة، فإنه يصلي ركعتين، ويدعو الله، ويستغيث به في سجوده.

صلينا نحن الثلاثة، ولا أظنه صلى معنا رابع، وبعد الصلاة عادت إلينا السكينة وهدوء النفس، ولكنه حَزٌّ في خاطرنا وجود أشخاص بجوارنا لم يصلوا معنا، فقد كانوا يتفرجون علينا فقط، ولم يصل معنا منهم سوى هذا الشاب المصري الذي صلى بنا؛ حيث كانت تبدو عليه الطمأنينة وهدوء النفس بشكل واضح للعيان، وكان يصاحبه شاب من بني جلدته يبدو على عكسه تماماً، كان يبدو عليه شيء من الاستهتار واللامبالاة، -مهازر- لا يكاد يكف عن الثرثرة والتدخين، وكان صاحبه الذي صلى بنا محور -هزاره- وثرثرته، ولم يكن إمامنا الذي صلى بنا يظهر أي ردة فعل على مشاكسات صاحبه إلا أنه بان عليه تضايقه من هذه التعليقات التي لم يكن وقتها مناسباً البتة، ومن سخرية هذا الساخر.



فقد كان يقول ساخراً بتهكم: «لماذا أنت خائف من الموت؟! لقد نجوت منه بعد أن كدنا نموت في الجمرات، عندما تأخرت، ولم تذهب معنا، لماذا تخاف منه الآن؟!».

واتضح من تعليقات هذا الساخر بصاحبه أنهم حاجان ضمن قافلة واحدة، وهم هنا على العبّارة عائدون من الحج إلى أهاليهم، واستمر هذا الساخر، ولم يترك صاحبه لحاله؛ بل واصل استفزازه ومضايقته بصورة سمجة كفيفة بأن تشير استياء كل أحد، خاصة في ظرف مثل الظرف الذي نعيشه.

في أثناء ذلك أثارت جلبية صادرة غير بعيد منا اهتمامنا وصرفتنا عن ثرثرة هذا -المهزار-؛ حيث كان جمع خليط من الناس يتدافعون بعنف، ويتصارعون حول صندوق حديدي كبير مثبت على سطح السفينة، ويحاولون أن يكسروه بصورة شرسة وجنونية تثير القلق والخوف، حاولنا أن نعرف هوية ما يتصارعون عليه بكل هذه الشراسة، فأتضح لنا عندما كسروه أنه صندوق فيه سترات نجاة بحريّة، لم نكن نشعر بحاجتنا إليها في تلك اللحظات، فلا يزال لدينا الأمل في إطفاء الحريق أو الإنقاذ، خصوصاً أن المسافة بين ضباء وسفاجا قريبة، كما أن تدافع الناس بهذا الشكل جعلنا نزهد فيها؛ حيث كانوا يتزاحمون، ويتدافعون بشدة لكي يحصل كل منهم على سترة أو أكثر.

كان هذا المنظر حزيناً يظهر فيه التقاتل على البقاء، والمحزن عندما تسمع صراخ من نفد الصندوق أمامه، ولم تستطع يده أن



تمسك بستره نجاه، حيث كان الصراع على صندوق الستر صراع الأقوياء، فالقوي يدفع الضعيف، ويأخذ مكانه حول الصندوق، ولك أيضاً أن تسمع صراخ اثنين متشاجرين على ستره لينتزعاها أقواهما ويهرب بها، ولك أيضاً أن تسمع الصيحات من بعض الركاب على الذي يحمل معه أكثر من ستره، وهو يبرر أنها «لصحابي هناك».

وهناك مشهد كان جلياً، وهو مشهد العائلات، واستلامهم لأرض السطح، وخصوصاً العائلات التي معها أطفال؛ حيث كانوا ينتظرون رب الأسرة الذي ذهب يبحث لهم عن ستر نجاه، ويحارب لكي يحصل عليها، ولكنها أيضاً لا تكفي لجميع أفراد أسرته، فيلبسون الأطفال، ويبقى الأب والأم دون ستره، ولك أن ترى الأطفال جثياً على ركبهم، وأيديهم مقيدة بأيادي أمهاتهم، بعد أن كانوا قبل نصف ساعة فقط يمرحون، ويلعبون في أرجاء السفينة.

بدأ الخوف يكون هولغة أعين المسافرين، وبدأ البكاء له صوت، وبدأت الكارثة تأخذ مكانها في قلوب الركاب جميعاً.

كنت أتساءل في نفسي: ما هذا الذي يحدث بالمسافرين؟ وقد تخطف الناس ما بالصندوق من سترات، حتى لم يبق منها شيء، خاصة أولئك الذين يصعدون من أسفل الدرج، فقد كانوا على درجة من الخوف والهلع وكأنهم يشاهدون شيئاً أو يعرفون شيئاً عظيماً نجعله، ويشير عندهم كل هذا الجزع والرعب، الأمر الذي



دفع (سعوداً) لأن يقول: «سأذهب، وأستطلع ما يحدث، ولأرى الحريق، وأعود إليك».

ولم يكد (سعود) يختفي عن ناظري بين الناس بدقائق، حتى أخذ الدخان ينتشر في سطح السفينة بكثافة، فأخذ الكل يركض؛ بحثاً عن ستر نجاة، ودارت حولي حيرة كبيرة فقد أخذ الموقف يزداد غموضاً وحرَجاً؛ حيث لاحظت أن معظم من حولي يرتدون ستر نجاة، وكأن الركاب بدؤوا يستعدون للفرق، وأخذ قلقي يتصاعد على (سعود) كلما ازداد الدخان المنبعث من أسفل بكثافة.

ستر النجاة الحمراء كانت هي الزي الغالب على الركاب في ظهر السفينة، وهي على نوعين: الأول جيد وعملي بالفعل؛ حيث تُنفخ بالشم لتُملأ بالهواء، وبها صافرة وكشاف، وتُلبس مثلما يلبس القميص، أما السترة الأخرى فهي عبارة عن (إسفنجية) لا تُنفخ، وتُلبس أيضاً مثل الأولى، ولكنها ليست كالأولى، فهي أقل جودة وفعالية.

تأخر (سعود) في العودة، وأصبح العثور عليه في هذه الفوضى المتصاعدة والفرع الذي سرى بين الركاب صعباً إن لم يكن مستحيلاً، ولم أعد أدري إلى أين ينبغي أن أذهب بحثاً عنه؟ فربما أذهب في اتجاه، ويأتي هو من اتجاه آخر، فيسلك بدوره طريقاً آخر للبحث عني؛ لذلك بقيت في مكاني، وجلست محلي لعله يعود سريعاً.



الدخان يتزايد أكثر فأكثر، وأحد الملاحين يطلب من جميع الركاب أن ينتقلوا من هذه الجهة التي نحن فيها والتي بدأ يزيد فيها الدخان إلى الجهة الثانية من سطح السفينة.

يذكر أن السفينة فيها ثلاثة سطوح على جوانبها، بجانب كل دور سطح مستقل، والسفينة مكونة من ثلاثة أدوار، إضافة إلى البرج، وإضافة إلى دور سفلي، وكراج سيارات ومستودعات شحن.

إلى تلك اللحظة كنت أظن أن الربان لا بد أنه قد اتخذ القرار بالعودة إلى ميناء ضباء، حيث إننا لم نبتعد عنه كثيراً، وتأكدت من ذلك عندما أخبرني أحد الركاب بأننا أبحرنا قرابة الساعة السابعة، وبهذا فإننا لم نبحر سوى ساعتين على أقصى تقدير، وبما أن الحريق نشب قبل ساعة تقريباً فإن القبطان بلا شك اتخذ قراره بالعودة إلى ضباء القريبة منه، أو طلب النجدة من سلطاتها الأقرب إليه، هكذا كنت أظن، وهكذا كنت أفكر، خصوصاً بعد أن أحسست أن العبارة انحرفت في مسارها، وكأنها غيرت وجهتها، وتواصل مسيرها دون توقف.

استجبنا لطلب الملاح، وأخذنا نتجه إلى الجهة الأخرى المقابلة من سطح السفينة، وما لفت نظري، وأثار دهشتي، وأنا أمشي تجاه الجهة اليمنى للسفينة شاب من الواضح فيما تكشف عنه ملامحه أنه سعودي، يقف وسط إعصار الفوضى الذي زعزع الجميع، ويحمل كاميرا فيديو يصوّر بها هذه المشاهد بهدوء وطمأنينة غير

متفاعل مع الفوضى المذعورة، وكأنه في إستديو يجلس بعيداً عن كل خطر، وجمال في خاطري سؤال طاف بذهني أن أسأله: من أين له هذه الطمأنينة، وهذه الثقة والتفاؤل؟!

ولكنني تراجعت عن سؤاله لسببين، أولهما: خشيت أن أفقده أمله الذي جعله يظن أن هذا الموقف لن يطول كثيراً، وأن النجاة قريبة جداً، والسبب الآخر أن الدخان الذي كان يتزايد قد انتقل من الجهة المقابلة لنا إلى الجهة التي كنا نقف عليها، فتركته ومضيت نحو سطح الجهة اليمنى للسفينة، ونحن هنا في سطح الدور الأول.



لمظات صبر واختبار والسفينة تحترق...

الفصل الرابع



ثم تزايد تصاعد الدخان أدركت حجم الخطر، وأنا فعلاً في ورطة وفي موقف لا نحسد عليه، وأن الحريق الذي يتحدثون عنه كان كبيراً بالفعل، وأخذت أعيد التفكير في موقفنا بناء على هذه المعطيات. واصلت سيري حتى وصلت للجهة المقابلة من سطح الباخرة، وعندما وصلت وجلست على أرضية السطح بين كوم من الناس، لم يكن أحد يعلم أين المكان المناسب للجلوس، ولكن بمجرد أن يجلس شخص ما تجد الجميع يجلسون حوله.

لم يعد عند الركاب أي مجال للتفكير في أي شيء سوى أن يروا اليايسة أو يروا أنوار سفينة إنقاذ تسعفنا؛ فالدخان لم يهدأ ولم يقل، ما يدل على أن الحريق متواصل ولم يُطفأ بعد.

كانت العائلات متناثرة في هذه الجهة، وكان ما يمزق القلب هو منظر الأمهات وسؤال أطفالهن اللحوق: «متى سنصل سفاجا؟ هل انطفأ الحريق؟»

وكان ما يمزق القلب أكثر تماسك هؤلاء الأمهات أمام أطفالهن، وهنَّ يطمئنونهم بقولهن: «سنصل بعد قليل، والحريق سيُطفأ إن شاء الله».



ولكن ما إن تصمد إحداهن أمام أسئلة أطفالها، حتى تنفجر أخرى باكية تضمهم إلى صدرها.

كان بالقرب مني امرأة مصرية، تحتضن ابنتها التي كانت تبكي بشدة وترتجف خوفاً، كانت الأم تضمها إلى صدرها بقوة لتهدئ من روعها، والبنات تشهق من شدة البكاء، وأما تضمها إلى صدرها وتحاول تهدئتها، اجتاحني شعور حاد بالأسى على الأم وابنتها، وهما وحيدتان تواجهان هذه اللحظات المرعبة، وتعيشان خوفاً لم ترياها من قبل.

حاولت جهدي مساعدتهما ودعمهما نفسياً، وماذا كنت أملك لحظتها غير ذلك؟!

فقلت لهما وأنا أوجه حديثي للأم: «اهدأ، بإرادة الله هي النافذة، ومن كتب الله له الحياة سيعيش، حتى لو غرقت السفينة، ومن كتب عليه الموت فسيموت حتى لو نجت السفينة من الغرق، ووصلت إلى البر سالمة، فلنسلم أمرنا جميعاً لله، وهو اللطيف بعباده».

لا أدري لماذا شعرت وأنا أوجه حديثي للمرأة وابنتها بأنني كنت أشجع نفسي قبل أن أشجعهما بهذه الكلمات، وكأنني أوجه الكلام إلى نفسي، فقد كنت في حاجة للتماسك وطمأنينة النفس.

وتذكرت حديثاً للنبي ﷺ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» (متفق عليه).



فأخذت أقرؤهما، كما أنتي قد قرأت أذكار المساء قبل ركوبي السفينة التي كانت بالتأكيد معينة ومثبتة لي في هذه المحنة، والتي حفظني إياها منذ كنت طفلاً الخال حسين بن لزهر والتي هي حصن حصين، وأعد -من وجهة نظري- أن من لا يحفظ أذكار المساء والصباح، ومن لا يعرفها، ولا يحافظ عليها أمي حتى لو كانت معه شهادة الدكتوراه.

وبذكر الله شعرت بالهدوء والطمأنينة يتسللان إلى قلبي. هذا بالإضافة إلى رؤيتنا للنساء والأطفال المذعورين من الحريق والأزمة التي نمر بها، فكل هذا يتطلب منا نحن الرجال والشباب أن نكون هادئين أمامهم؛ لكي نبعث فيهم شيئاً من الاطمئنان والأمان، ما جعل هذا الهدوء المفعل يكون حقيقياً لدي، فبدأت أشعر بنوع من الاطمئنان والهدوء النسبي.

ولكن ما نكاد نهدأ قليلاً حتى يثير أحد المرعوبين القلق والمخاوف على الركاب من جديد.

فقد انهارت أعصاب شاب مصري في الرابعة عشرة من عمره تقريباً خوفاً ورعباً، فأخذ يصرخ بهستيريا، والناس من حوله يحاولون جهدهم تهدئته وإمساكه؛ حتى لا يندفع تحت ضغط رعبه الهستيري لإيذاء نفسه، هذا المشهد زاد من مخاوفي على (سعود) الذي لم يعد بعد، فأخذت أبحث عنه، فلم أجده، خصوصاً أن أضواء هذه الجهة التي انتقلنا إليها قد انطفأت، فجلست على ممر بين



الركاب يمشي فيه من أراد التحرك على سطح السفينة، وفي الحادية عشرة تقريباً سمعت صوتاً ينادي: «يا ابن مشوط... يا ابن مشوط». وقمت، فإذا هو صوت (سعود)، اتجهت إلى مصدر الصوت وفور وقوع عيني عليه احتضنته بشدة من شدة قلقي وخوفي عليه، وهو الآخر كان يبحث عني منذ مدة، ثم ذهبت أنا وإياه، وجلسنا متكئين على ظهر السفينة، وطلبت منه عدم الذهاب إلى رؤية الحريق مرة أخرى، وأسند كل واحد منا ظهره على جدار أدوار السفينة، وأعيننا تجاه البحر.

أحياناً يبدو سلوك الناس في مثل تلك اللحظات غريباً يستعصي على التفسير، ولا أقصد ردود الفعل الغريزية، مثل: الخوف والرعب الذي قد يصل إلى درجة أن يفقد الإنسان، ليس رباطة جأشه وحدها، بل يفقد السيطرة على أعصابه، مثلما حدث للصبي المصري، فغريزة البقاء وحب الحياة قد تدفع الإنسان أحياناً إلى سلوك متطرف في رفضه للموت، وكل هذا مفهوم ومعقول، أي يمكن أن يتقبله العقل كردود أفعال تختلف وتتفاوت بين إنسان وآخر حسب درجة ومدى إيمانه بما بعد الموت، ولكني أعني هنا السلوك الذي لا يشكل ردة فعل مباشرة ومتطرفة، ومن ذلك أنني عندما وجدت (سعوداً)، لم أستطع أن أنظر في عينيه مباشرة، وكأن شيئاً ما يجعلني لا أنظر في عينيه، وأظنه فعل الشيء نفسه، لست متأكداً ومتيقناً من هذا؛ لأن بصري كان يتحاشاه، ولم أسأل



نفسي لحظتها عن السبب، ولكن فيما بعد أتوقع أنني كنت أخشى النظر إليه، وخشيت أن يبدأ كل منا يوصي الآخر كما يوصي الميت الحي، وما يريد أن يفعله الآخر بعد موته، إن عاش صاحبه، وغير ذلك مما يمكن أن يقال عندما يكون احتمال الموت كبيراً ومتوقعاً، وأيضا خشية أن تبدأ مشاعر الوداع في غزونا فتحطمنا، ونحن لسنا في حاجة لما يحبطنا؛ بل في حاجة لما يعززنا، ويثير فينا الأمل الذي يجعلنا نقاوم مصيبتنا الجلل إلى أن تفرج بإذن الله.

وحينها كان كل من في الباخرة على الأرجح يلبسون ستر نجاة عدا (سعود)، وأما أنا فعندما ذهب (سعود) للتحقق من الحريق رمى إلي الشاب المصري الذي صلى بنا صلاة الاستغاثة سترة من النوع العادي فلبستها، ولا أدري ما الدافع الذي دفع هذا المصري لإعطائي سترة قد يكون هو في حاجة إليها، ولكنني فوجئت به يعطيني السترة مع أن لا علاقة بيننا؛ حتى أنني لا أعرف اسمه، وهو كذلك، ولعلها الصلاة هي التي ألقت بين قلوبنا.

أخذنا نبحت لـ (سعود) عن سترة، ووجدنا سترة ملقاة على سطح السفينة مشابهة للتي ألبسها، فأخذها (سعود) ولبسها، وإذا هي جيدة، ثم ذهبنا وجلسنا متكئين على سور السطح صامتين تماماً، نسبح الله، ونستغفره بين الفينة والأخرى، ولم ينطق أحدا بكلمة أو يأت بحركة، تدثرنا بالصمت، ونحن نتطلع إلى البحر الذي اكتسى بالسواد، ولا شيء غير دوي أمواجه.



وفجأة طرقت آذاننا صيحات انطلقت من بعض الركاب تقول بعد تجميع كلماتها المتناثرة: إن هناك قارب نجاة خرج من السفينة يحمل أربعة أشخاص، وقد انطلق مولياً ظهره للسفينة، بعضهم كانوا يؤكدون بيقين أنه قبطان العبارة ومعه بعض أفراد طاقمها، ولعل من قال ذلك بعض الملاحين، فهم يعرفونه أو أن زي لبس الذين فروا في القارب يدل على أنهم من ملاحي العبارة، ومن موظفيها، شخصياً لم أر شيئاً، ولكن جمعاً كبيراً من الناس شاهدوا القارب، وهو ينطلق مبتعداً عن الباخرة وعلى متنه ما لا يقل عن أربعة أشخاص أو خمسة.

كان نصف أنوار الإضاءة بالباخرة مطفأة، وخصوصاً الجهة التي نجلس فيها كما قلت مسبقاً، وعندما بدأت الباخرة تميل ببطء على جانبها الأيسر أخذت الأنوار تتطفئ واحدة إثر الأخرى كأنوار السواري، والضوء الذي يخرج من نوافذ الباخرة.

في البداية لم يكن الميل ملحوظاً بالنسبة لنا نحن الذين نقف في الاتجاه الأيمن المعاكس، ولكن الباخرة خفت سرعة سيرها، وبدأ ميلها للجهة اليسرى واضحاً، ومن ثم استقرت نوعاً ما على درجة من الميل، وهي تواصل المسير ولم تتوقف، وكان البرد في تلك الأثناء يشتد على السطح حيث كنا نجلس، فأخذت بعض العائلات وخصوصاً التي معها أطفال تدخل الكبائن في الداخل؛ اتقاء البرد؛ إذ كان البرد قارصاً بالإضافة إلى الهواء البارد الرطب نتيجة سير السفينة.



في تلك اللحظة انتبهت إلى أنني لم ألبس الجوارب (الشُّراب)،
فالبرد القارص على سطح الباخرة كاد يجمد أقدامي، وكان
بالقرب مني مسنٌ مصري وبالقرب منه حقيبة ضخمة، أخذتها
ووضعتها على قدمي؛ لعلني أشعر بالدفع.

ولكن العجوز المصري قال لي بلهجة فلاحية مصرية: «سيبها
دي بتاعت ناس»، قلت: «لن أخذها، ولكن سأدفعُ بها قدمي»، ولكنه
رفض، فتقبلت هذا الرفض منه، خاصة أنه رجل كبير، وفي كل
الأحوال كان الحق معه، وأخذت أتجاذب معه أطراف الحديث...

لا أعرف لماذا، ولكن كان لدي فضول لمعرفة هذا الشخص
الذي لا يزال متفائلاً، ليس فقط بنجاة نفسه، ولكن أيضاً متفائل
بنجاة عفشه وحقائبه أيضاً، ولعله أيضاً الفضول الصحفي الذي
يرافقني دائماً، ويتعبني كثيراً، فسألته: من أين هو؟ وما عمله؟
وما إلى ذلك... وعرفت منه أنه فلاح من صعيد مصر، جاء قبل
سنوات إلى المملكة، ويعمل مزارعاً في إحدى مزارع الرياض، بدوري
أخذت أحدثه عن بيشة، ومزارعها الجميلة الخضراء، وأن بيشة
فيها كثير من الفلاحين المصريين الذين يعملون في مزارعها، ولعلي
كغيري من أهل بيشة، نحبها كثيراً، ونتحدث عنها كثيراً بين من
لا يعرفها أو يزورها ما جعل بعض الأصدقاء والزملاء من خارج
بيشة يلاحظون ذلك؛ بل يجعلهم بعض الأحيان يتذمرون من ذلك
مازحين.



حقيقة، لا أدري ما الشيء الذي جعلني أسهب في الحديث مع هذا الشيخ المصري، قد يكون محاولة للهروب مما نحن فيه، ولإقناع نفسي بأن الوضع ليس خطراً جدًّا، ربما كان هذا السبب، ربما...

في أثناء تبادل الحديث مع هذا الفلاح سمعنا أصوات احتجاج تتعالى بين الناس في وجه رجل كان يشعل سيجارة ويدخن، ما أثار حنق الناس عليه، حيث كانوا في حالة من التوتر الكبير، وكان بعضهم يصرخ في وجه هذا الرجل، الذي وقف مبهوراً يحملق في وجوه الذين تحلقوا حوله يطالبونه بإطفاء سيجارته، قائلين له: «كيف تسمح لنفسك بالتدخين هنا وفي هذا الموقف؟!».

بينما ذهب بعضهم أبعد من ذلك قائلاً له: «ربما يكون هذا الحريق بسبب سيجارة رماها مدخن مثلك!».

كان هذا اللغط يمكن أن يتطور لو لم يقطعه صوت انفجار كهربائي هائل بالقرب منا، جعل الناس يذهلون عن السيجارة وصاحبها وينسون أمرهما.

وأمسى الحريق بذلك الانفجار قريباً جدًّا منا على السطح، ولا يبعد عنا سوى أمتار قليلة، فأخذت مجموعات من الركاب تتدافع ركضاً؛ للابتعاد عن مكان الحريق، وبذلك ضاقت مساحة السطح الذي نحن فيه بعد هذا الانفجار، ولكن ما لبثنا حتى توقف اللهب، إلا أن الأسلاك الكهربائية كانت تتأكل دون لهب،



ويخرج منها دخان مرتفع، ما جعل الأشخاص الذين كانوا يجلسون بالقرب من مكان الانفجار يفرون من ذلك المكان، ويجلسون بيننا.

وبذلك بقينا محاصرين بين الحريق من جهة والبحر وظلمته من جهة أخرى، ونحن في مساحة صغيرة من السطح.

في هذه المساحة الصغيرة كان بالقرب منا رجل مصري يرقد مفترشاً بطنانية، ويتغطى بأخرى، وكان الناس من تدافعهم يطؤون فراشه دون قصد، وهو فيما يبدو لم يكن يشعر بهم، وبما يحيط به من خطر، يرقد مطمئناً غير مبال بالحريق، مع أنني لم أكن أتوقع أنه نائم؛ حيث إنه عندما وُطئ فراشه صاح غاضباً: «فيه إيه؟ خائفين من الموت؟ لسه عارفين أن فيه موت؟ ابعد يله...، محدش يدوس على البطنانية».

ثم أطلق تحذيرات هادرة ومتوقعة بأنه لن يسمح لأحد أن يطأه، أو يطأ مفرشه، وبالطبع ما كان لأحد من الراكضين هلعاً أن يعير ثورته أو تهديداته بالاً.

مالت الباخرة قليلاً ما جعلنا نغيّر مكاننا؛ حيث كانت ظهورنا مستندةً على مبنى الباخرة، ووجهنا متجهة للجهة اليمنى، والميلان للجهة اليسرى، فغيّرنا مكاننا، وجلسنا بجوار المصري صاحب البطنانية الغاضب، فقد وجدنا بجواره مكاناً، حينها ولما كنت أعاني من البرد الشديد دسست قدمي اللتين كادتتا تتجمدان



برداً تحت فراشه؛ لأستمد شيئاً من الدفء، وأسندت ظهري إلى السارية التي تعلق فيها القوارب الخشبية.

وكان هو يحاول أن ينام، أو أن يغصب نفسه على النوم، لكنه لم ينم، فهو يتقلب كثيراً على فراشه، المهم عندي حينها أنني أحسست بالدفء بعد أن وضعت قدمي تحت بطانيته.

كان الركاب يتسلقون السواري؛ لكي يركبوا في القوارب الخشبية، حتى امتلأت تلك القوارب، ولكنها لم تتحرر بعد، ولا تزال مربوطة في سواري (أعمدة) السفينة.

وعندما جلست في مكاني هذا، وأخذت أنظر إلى من حولي، رأيت غير بعيد مني شاباً يلبس الزي السعودي، ويبدو عليه أنه لم يعد قادراً على الكلام أو التفاعل مع ما حوله، كان يجلس هادئاً بلا أي ردة فعل، محتمياً بالصمت، وبما أن هيئته تدل على أنه سعودي أخذت أتحدث معه، ولكنه لم يتكلم معي كثيراً، وعاد إلى وجومه ساهماً يلوذ بالصمت؛ وكأنه أغلق أبواب إدراكه عن العالم، فتركته لحاله، إلا أن الدخان ازداد كثافةً، وبتنا معرضين للاختناق، وصاحبنا الشاب السعودي الذي فيما يبدو أنه قد وصل إلى درجة بالغة من اليأس، واستسلم تماماً لمصيره، يغمض عينيه بين حين وآخر ليغفو، فأخذت أوقظه كلما أغمض عينيه؛ كي لا يموت اختناقاً، وأنبهه بالألوان كي لا يختنق.



أخذ ظلام الليل يزداد سواداً بعد ضعف نور السفينة، حتى كاد ينعدم، وأصوات الانفجارات الكهربائية تعلو بين حين وآخر، فتضيء الظلمة بومضات خاطفة تنذر بالخطر المجهول، والبرد يزداد شدةً، ولم نكن ندري ما الذي يحدث تحديداً، أو ما الذي سيحدث لاحقاً، وأخذ (سعود) يخبرني عما بداخل السفينة، وما شاهده عندما ذهب ليرى الحريق، حيث صادفته نسوة سعوديات معهن أطفالهن، والخوف يعصف بهن، حتى أخذن يستنجدن به، عندما عرفن أنه سعودي من خلال حديثه مع أحد الركاب، وأخذن يسألنّه عن الحريق، ويستعلمن منه عن حجمه، ومدى خطورته على سلامة السفينة، وهل يمكن أن تنجو الباخرة وركابها، أم أن الجميع سيلاقون حتفهم حرقاً أو غرقاً؟! ولما لم يكن يملك إجابة عن هذه الأسئلة، لا هو، ولا أي راكب آخر على متن الباخرة، فقد اكتفى بأن يطمئنهنّ، ويحاول بث الطمأنينة إلى نفوسهن، ويهدئ من روعهن، وهو يقاسي ألماً نفسياً حاداً على حالهن.

بدأ الحريق يزداد في أسفل العبّارة، حتى بدأ يضر ملاحى العبّارة ويخنقهم في أسفل العبّارة عند محاولتهم إطفاء النار، وطاقم السفينة يركضون مسرعين داخل العبّارة في كل مكان، مرعوبين، وملا بسهم مبللة بالماء، وفي هذه الأثناء كانت الإذاعة الخاصة بالعبّارة تنادي على الأطباء والفنيين فقط، وبدأ يظهر على صوت موظف الإذاعة الارتباك والهلع؛ بل إنه في بعض الأحيان



يصرخ؛ ليستعجل الطبيب لإسعاف المختنقين والمحترقين من الملاحين الذين كانوا يحاولون إطفاء الحريق.

لم يبق حتى الآن أحد من أفراد طاقم السفينة بإعلامنا بكيفية النجاة، ولا ماذا يوجد من وسائل الإنقاذ على العبارة؟ ولم يقل أحد ما سبب الحريق؟ وهل هم قادرون بالفعل على إطفائه أم لا؟ وما هي التعليمات الواجب علينا اتباعها؟

أي لم تُوجّه إلينا كلمة واحدة عن خطة للطوارئ يمكن أن تتبع في مثل هذه الظروف، فبقينا أسرى الترقب وانتظار المجهول، والنار لا تزال تشتعل، والدخان يتزايد، ولم يأتِ الإنقاذ بعد، كانت كل هذه الظروف تحيط بنا من جهة، والموت والغرق يلوح لنا من الجهة الأخرى.



لمحطات مرجة



الفصل الخامس

أخذ الدخان يتزايد ويتكاثر بصورة لا تحتمل، وأنا لا أزال
أضع قدميَّ مستدفئاً تحت مفرش صاحبنا المصري، وكنت
أتمنى أن يستغرق في نومه، فلا يحتج عليّ؛ لمشاركته في مفرشه
وغطائه.

استيقظ المصري المتناوم، فسحبت قدميَّ بسرعة وهدوء؛ حتى
لا يراني أو يشعر بي ويثير ضجة أو يفتعل مشكلة لا أحد يرغب
فيها، وأيقظت الشاب السعودي الذي استغرق في النوم؛ هرباً من
هول ما يشاهد، ونبهته بأن الدخان يزداد كثافة، وحذرت من النوم
مرة أخرى حتى لا يختنق، كانت الساعة قرابة الثانية فجراً؛ حينما
بدأنا نشعر بأن الدخان لكثافته ثقيل؛ وكأنه مشبع بالماء، وبوادة
من المحاولات الأخيرة اليائسة قمت برفع جوالي إلى الأعلى؛ علّه
يلتقط إشارة ما، أو اتصالاً من جهة ما، كانت محاولة يائسٍ يحاول
بأي طريقة البحث عن مخرج من هذا الموقف غير المتوقع، إلا أن
الأبراج في السفينة باتت في خبر كان.

كما أن تكاثف الدخان دفعني إلى التفكير في القفز من الباخرة
إلى الماء من موقعي؛ هرباً من الاختناق؛ حيث كنت أقف متكئاً بيدي
على السور الحديدي، أنظر إلى البحر، إلا أن سطح الماء كان بعيداً



جداً ولا يمكن القفز إليه من مكاني الذي أقف فيه، فعدلت عن الفكرة متراجعاً إلى باحة السطح.

في تلك اللحظات أخذت السفينة تميل أكثر وأكثر، وارتفع صوت صرير خشبي حاد يشبه صوت الأبواب الخشبية الكبيرة القديمة في البيوت الطينية العتيقة، وارتفع معه صوت الصراخ والصيحات ليبدأ ما كنا نخشاه منذ بداية الحريق (الساعة التاسعة)؛ حيث بدأت السفينة تغرق، وأخذت تميل أكثر فأكثر ناحية الجانب الأيسر في طريقها للانقلاب، فتشبثت بعمود السارية، ومددت يديّ ممسكاً بحواف السطح الحديدية على جانب الباخرة الأيمن حيث كان قريباً مني، في حين تشبثت (سعود) بالسارية، أما من كانوا بالجهة اليسرى منها، فقد نزلت بهم السفينة إلى البحر ليغيبوا فيه، وبدأت السفينة تغرق، ولها صوت صرير الخشب ما زاد المشهد رعباً، خصوصاً أن هذا الصوت ممزوج بصراخ الناس وصيحاتهم، وممزوج بصوت البحر وارتطام أمواجه بالسفينة، وممزوج بصوت الانفجارات داخل السفينة، إلى أن نامت السفينة على جانبها الأيسر، وبدأت تغرق شيئاً فشيئاً.

كان الموج يحاول أن يبتلع السفينة، ويحاول أن يصلنا نحن الذين لم نفرق بعد، وكأن الموج يحاول أن يصعد إلى قمة جبل؛ حيث كان الموج يرتفع بقوة إلى أعلى، ويضرب السفينة موجة إثر موجة، كل



واحدة أكبر من أختها، وكأن الموج هو أيضاً غريق يحاول أن يتمسك بما بقي من السفينة خارج البحر.

وبقينا أنا و (سعود) متمسكين في السارية، وحاولت جاهداً من ناحيتي أن أصعد على حدائد سور السفينة وأعتليها، فيما (سعود) يجاهد ويحاول الإمساك بالسور، وكان الأمر صعباً جداً.

أما من كانوا على حائط أدوار السفينة، فقد صارت النوافذ تتكسر من تحتهم، وهم على وشك أن يصلهم الماء، وكانوا يحاولون مقاومة الانزلاق إلى البحر، والتشبث بما تطول به أيديهم، للتعلم بحافة سطح الجهة اليمنى الذي نحن متعلقون فيه، كانوا -بدافع من غريزة البقاء- يشكلون تهديداً لنا، فمن كان يجد نفسه قريباً منا كان يقفز بكل ما أوتي من قوة، ويمد يده للإمساك بأقدامنا؛ طلباً للنجاة بنفسه، حتى وصلت يد أحدهم إلى (سعود)، وتشبث به ما جعل (سعوداً) يسقط هو وإياه إلى أسفل، وكانت الباخرة في هذه الأثناء تهبط شيئاً فشيئاً، وتغوص في البحر، متكئة على جانبها الأيسر.

بذلت أقصى ما في طاقتي لأعتلي سور السطح الحديدي، وبالفعل استطعت أن أعتليه، ومددت بطني وصدري على حدائده؛ كي لا أسقط، ورحت أبحث عن (سعود) وأركز النظر في المكان الذي سقط فيه لعل عيني تقعان عليه، لكن الموج والماء وسواد الليل أغرق ذلك المكان.



استقرت الباخرة على جانبها الأيسر نوعاً ما، وابتلع البحر من كانوا في ذلك الجانب، فيما كان الموج يضرب الباخرة، وكأنه أيدٍ عملاقة تمتد، وتريد أن تسحب من بقي على الجهة اليمنى، ولكن الموج لم يكن يصل كل الأماكن في الجهة اليمنى، خصوصاً من تعلق بالسور الحديدي لسطح الجهة اليمنى من الدور الأول، ونظراً لكبر حجم السفينة كان غوصها في الماء بطيئاً نسبياً.

واستمرت النواذف تصدر أصوات انفجارات مدوية بفعل ضغط الماء، فيما يخرج منها اللهب كالثوافير وكالألعاب النارية، وأخذت رائحة شواء الأجساد البشرية، ورائحة الانفجارات تتصاعد نفاذة مخيفة، تملأ المكان دون تحديد مصدرها، تلفت حولي لأرى من استطاع التشبث مثلي بالسور الذي لم يغرق بعد، فوجدتهم لا يتجاوزون ستين شخصاً، أما من كانوا يخرجون من النواذف بفعل ضغط الماء فقد كان الموج يعلوهم، ويسحبهم إلى البحر.

كانت الباخرة تتجه إلى الجهة اليسرى أكثر فأكثر، وبدأ سور السفينة يميل إلى أسفل، وأنا أسحب نفسي في الاتجاه المعاكس، وأمشي عكس حركة السفينة - مثل حركة عقارب الساعة - ومن ثم استقرت السفينة قليلاً على شكل زاوية، وجلسنا على حافتها (حافة قاعها بطنها الذي تسير عليه)، وبعض الناس كانوا يخرجون من النواذف التي لم تغمرها المياه، ومن الأماكن التي لم تصلها المياه بعد، ويصعدون جهتنا، والموج يحاول الوصول إليهم ليبتلع البحر



بعضهم في منظر مخيف ومرعب جداً، وكان بعضهم عندما يقترب منا يتزحلق؛ حيث إن حواف قاع السفينة ملساء، فترى الواحد يكاد يصل إلينا، ثم ما يلبث أن يتزحلق إلى أسفل، ومن يصل إلينا نمدّ أيدينا إليه، وكان معظمهم قد احترق؛ إلا أن هذه الحال لم تستمر سوى دقائق، ولم ينجُ من هؤلاء المتسلقين الفارين من الموت سوى عدد بسيط.

استمرت حركة السفينة بعدها بالدوران، واستمرت حركتنا عكسها، حتى استقرت السفينة على وجهها تماماً، وبات عاليها سافلها، وأصبحنا على ظهرها الذي يفترض أن يكون هو أسفلها الذي كان أملس فولاذياً حاراً من أثر الانفجارات والحريق، وما سهل حركتنا وتغيير أماكننا أن حركة السفينة ودورانها كان بطيئاً، وذلك من جراء كبر حجمها.

وفي تلك الأثناء أخذت أفرك جلدي؛ لعله حلم، وأستيقظ منه، فقد كان المشهد والخطر والخوف فظيماً جداً، كنت أتحرك، ولا أعلم إلى أين أتجه، هل أنا متجه إلى الموت، أم إلى طريق النجاة والحياة، التي كنت أراها حينذاك بعيدة.

قررت حينها أن أرمي بنفسي إلى البحر؛ حيث كانت السفينة تتجه نحو القاع، وتغوص شيئاً فشيئاً، وكنت قد سمعت من يحذر بأن الباخرة فور غرقها ستحدث في محيط غرقها دوامة هائلة، وستبتلع كل شيء وكل من في محيطها، ففتحت سحاب بنطالي،



ووضعت فيه بطاقتي الشخصية، ليس لأمل أنني سأعيش، ولكن كي يتم التعرف على هويتي في حال العثور علي، وانتشال جثتي بعد الغرق إن وجدوها؛ حيث إنني أحسست بالموت، وإنني سأموت في البحر، ألقيت نظرة أخيرة على شاشة الجوال، إذ كانت ساعته تشير إلى الثانية وخمس وعشرين دقيقة، ثم رميت الجهاز في البحر.

وانتابني للحظة مرة أخرى شك في أن كل ما يحدث مجرد حلم، فقرصت ساعدي؛ لأتأكد من أنني لست في حلم، وأن ما يحدث حقيقي وواقعي، فتيقنت حينها من الموت؛ بل رأيته رأي العين، ونطقت بالشهادة، ثم متوكلاً على الله ألقيت بنفسي في البحر؛ ليبتلعني مثل الحجر الصغير.



مِراع مع الأمواج من أجل البقاء

الفصل السادس



بعد أن رميت نفسي في البحر أحسست بأنني أغوص بسرعة هائلة وكأن البحر ليس له قاع، وكانت كثافة الماء عالية.

وشعرت بالخوف يسري في جسمي، وكنت أفتح عيني بشدة، وكأنني أنتظر رؤية النهاية، لقد رميت بنفسي وأنا أشعر بالموت، فأين سأذهب إلا إلى طريقه حيث لم أرَ أحداً يسبح بالقرب من السفينة بتاتاً فظلمة الليل وأمواج البحر لا تجعلني أرى أحداً أتجه إليه ما دفعني إلى أن أقفز وأذهب إلى البحر قبل أن تجرني أمواجه إليه.

وكانت هذه اللحظات من أصعب اللحظات التي واجهتها في هذه الكارثة، وقد علمت لاحقاً أن المكان الذي غرقت فيه السفينة يصل عمقه إلى ١٢٠٠ متر.

فأخذت أمد يدي وقدمي، وأحاول أن أفرد جسمي؛ حتى أتوقف عن الغوص في البحر ولكن لا فائدة، فالبحر أخذ يبتلعني ولعل عمق المياه يجعلني لا أتوقف وأيضاً قوة السقوط لها دور أيضاً.

وأخذت أحرك أطرافي سابحاً إلى السطح بكل ما أوتيت من قوة، مدفوعاً بغريزة حب البقاء، ولكي أسعف نفسي بالهواء لأتنفس، ولم



أدرك أنني على السطح أطفو؛ إلا بعد أن شعرت بلفحة هواء باردة على وجهي، حيث كان الظلام الدامس يلف كل ما حولي في ثوب حالك من السواد، وبقيت مكاني أنظر؛ لعلني أرى أناساً أو قوارب أو أي شيء أتجه إليه، ولكن لم أر شيئاً.

وبدأت أشرب الهواء شرباً لأملأ صدري بعد أن كدت أغرق.

رفعت رأسي إلى السماء، فرأيتها بيضاء مليئة بالانجوم، ولعل غياب القمر مع ظلام البحر جعلها أكثر توهجاً، ولكنها لا تصدر ضوءاً يخفف من حلقة ظلام الليل والبحر، حيث كنا في الثالث من شهر المحرم.

ثم تناهت إلى أذني أصوات صافرات؛ لعلها الصافرات الموجودة في ستر النجاة لبعض الغرقى، ويختلط بصوت الصافرات صراخ الغرقى المذعورين، وتختلط كل الأصوات بهدير الأمواج التي ثارت حول السفينة الغارقة التي بدأت تأخذ طريقها إلى قاع البحر.

استجمعت إرادتي، وما أوتيت من قوة، وأخذت أسبح بسرعة بعيداً عن السفينة الغارقة؛ هرباً وابتعاداً من دوامة الموج الثائرة حولها، سبحت مبتعداً وأنا أشعر، وكأن هناك قوة عاتية تجذبني لقلب الدوامة، أحياناً ترفعني على رأسها موجة عند مدها، لتهبط بي موجة أخرى عند جذرها إلى أسفل، ثم رأيت وأنا على تلك الحال قارباً، حيث رأيت كشاف أحد الذين يركبون فيه، فأتجهت إليه، وكان هذا القارب -حسبما علمت لاحقاً- من ضمن مجموعة



من القوارب المطاطية في السفينة، ولم يصل الركاب إلا إلى ستة منها، ولم ينج منها أيضاً سوى خمسة قوارب، بعد أن تعرضت البقية للتلف والخرق والتمزق، فأغرقت راكبيها، وبعضها فيما علمت لاحقاً كانت تحمل على متنها عدداً أكثر من طاقتها؛ فانتهت إلى الغرق بهم.

أما القوارب الخشبية المخصصة لمثل هذه الطوارئ في السفينة، فقد غرقت بمن عليها ممن تشبثوا بها طلباً للنجاة؛ لأنها أساساً بقيت مربوطة في سارية العبارة بسلاسل حديدية، ولم يتم إطلاقها قبل غرق الباخرة، فكأنها كانت معدة للموت لا النجاة منه، حيث إن الذين ركبوا فيها ظنوا أنها ستبحر بهم، إلا أنها غاصت بهم مع السفينة ولم يفلح الركاب في فك هذه القوارب.

ولم يعد هناك قوارب حرة غير مربوطة سوى القوارب المطاطية التي لم يستخدم منها سوى القليل، وقد علمت أن مسؤولي السفينة لم يطلقوها، ولكنها عبارة عن براميل تفتح وتبحر بشكل تلقائي، ولكن بعضها أيضاً لم يفتح، والقارب منها على شكل شبه مستطيل (٤×٣ متر) مغطى بشرائح على شكل ظهر سلحفاة، وهناك في القارب فتحتان، وكأنها مدخل وباب للقارب.

وغير بعيد عن موقع غرق الباخرة كنت أسبح نحو أحد هذه القوارب، وأخذت أهرب من دوامة السفينة، وكانت الجثث على سطح البحر، رجال وأطفال ونساء، وأيضاً كان السطح مليئاً بأشياء



المسافرين من ملابس وأحذية ولعب أطفال، وأنا أتحاشى النظر للجنث وكل ما حولي في كل مكان؛ حتى لا أتأثر أو تضعف إرادتي وعزيمتي أو يصيبني اليأس والإحباط.

وعندما اقتربت من القارب، تراءى لي أنه عن يميني؛ حيث كان الموج وحركته القوية يخالفان ويغيران مكان كل شيء يمران به، فأتجهت إليه وهو يتجه نحو السفينة، وكأن الدوامة تجره إليها، فتوقفت قليلاً وأنا أنظر إليه، والموج يلعب به كأنه (سبحة) تلعب بها الأصابع، وكان صراخ من في القارب يدل على أنهم يحسون بالهلاك، فأخذت أبتعد عنهم، وصرفت النظر عن هذا القارب، وأكملت سباحتي؛ هرباً من السفينة، ومن هذه الأمواج حولها التي كان ارتفاعها كبيراً.

ورأيت الضوء نفسه الذي رأيته في القارب المطاطي السابق؛ حيث رأيت نور كشاف من بعيد لرجل يركب في قارب آخر، فدبّ الأمل في قلبي من جديد، واستشعرت القوة تسري في جسدي، فأخذت أسبح بقوة تجاه هذا النور، وفي طريقي سباحة إلى القارب شعرت بأن سترة النجاة التي ألبسها تشكل عائقاً وثقلاً يحول دون انطلاقي بخفة وسرعة إلى القارب، خصوصاً أن ملابسي لا تزال علي؛ حيث إن البيجامة التي لبستها من شدة برد سطح السفينة في أول الحريق لا تزال علي، والسترة فوقها، وفكرت بالفعل في التخلص من السترة والبيجامة لأرمي بها، وألقيها عني؛ إلا أن



ذلك سيكون قراراً خاطئاً؛ بل قاتلاً، كما اتضح لي فيما بعد، وحمدت الله لعدم تنفيذه، فالبيجامة ساعدتني على مقاومة البرد الشديد جداً والقاتل -ولعل كثيراً من الركاب الذين ماتوا، ماتوا من البرد- كما أن السترة لها الفضل -بعد الله- في عدم غوصي في المياه، خصوصاً أنني لم أكن أعد نفسي ممن يجيدون السباحة، فمثلي مثل غيري كنت أعرف السباحة نظرياً، وبالمشاهدة فقط، إلا أنني لم أكن من ممارسيها باستمرار، وكل ما كنت أجيده هو الطفو فوق الماء على الظهر، وهذه كما يعلم كل من جرب هذه الطريقة في السباحة لا تحتاج إلى مهارات خاصة، ولا إلى معرفة وإلمام بتقنيات معينة، وكل ما عليك فعله هو أن تمدد ظهرك على سطح الماء، وتحافظ على جسمك مستقيماً مع تحريك قدميك، وهما في حالة الاستواء، وتحريك يديك حتى تظل طافياً على سطح الماء، ولم تكن هذه حالي وحدي، فصديقي (سعود) أيضاً كان مثلي لا يجيد السباحة، إلا أن سترة النجاة كان لها الدور الأكبر في استطاعتي مواصلة السباحة على البطن بطريقة سلسة وسهلة، ولكنها كانت سباحة بطيئة، وكان الأمل في النجاة يقوى كلما ازدادت قرباً من القارب؛ إلا أن القارب أخذ يبتعد، وأحسست بأنني لن أتمكن من اللحاق بالقارب وأخذت أسبح، وأنا يائس.

وفجأة، أحسست بأنني اقتربت منه أكثر، ولا أعلم؛ هل الموجة التي حملتني على ظهرها هي التي جعلتني أقترّب منه، أم أن ارتداد



الموج جعل القارب يقترب مني؟ المهم أن الله سبحانه قربني منهم،
وأخذت أجدّ في السباحة حتى وصلت بالقرب من القارب.
كان هناك شيء لم أفكر فيه، ولم يخطر على بالي، وأنا أسبح،
وأعوم في البحر سعياً خلف القارب المطاطي، ولو أنه خطر في بالي
لأضعف من عزيمتي بشكل كبير، ألا وهو سمك القرش الذي علمت
فيما بعد، أن المكان الذي غرقت فيه السفينة غني بأسماء القرش،
وقد أكلت هذه الأسماك عدداً من الركاب، وهم يسبحون.



البرد والظلام و ضربات الأمواج

الفصل السابع



عندما اقتربت من القارب وجدته ينوء تحت ثقل ما يحمله من أشخاص يتجاوز عددهم طاقته بأضعاف، ولشدة خوفهم من أن يغرق بهم؛ لكثرتهم كانوا يطردون كل من يقترب من قارب نجاتهم بعنف، ولك أن تسمع الأصوات والتوسلات لهم من قبل كثير من الفرقى الذين يحاولون الركوب معهم، ولكنهم يرفضون، لقد اتحدوا في مواجهة الموت ضد كل من يحاول الصعود إلى القارب؛ لأنه يشكل تهديداً محتملاً لحياتهم، كانوا يدافعون عن أنفسهم وعن حياتهم التي كانت على المحك بشراسة؛ لذا لم أستقبل منهم بالترحاب كما هو متوقع، بل حاولوا طردي وإبعادي عن القارب.

فأخذت أسبح بصمت بالقرب من القارب ودون أن أثير فوضى وبلبله حولي، وأخذت استعطف أحد ركاب القارب وقد كان يجلس عند فتحة القارب؛ حيث إن القارب له فتحتان، والشرع يغطيه من جميع النواحي، ويبقي هاتين الفتحتين المقوستين، ومن كثرة ركاب القارب كان يجلس عليها أناس، وكان هذا الذي على الفتحة مصري الجنسية، فرجوته أن يساعدني على الركوب معهم، فلان قلبه ورق لي ولحالي، فسمح لي بالركوب حيث يجلس، بل ساعدني على الركوب حيث إنني كنت مرهقاً ومتعباً للغاية، فساعدني على



الصعود إلى القارب الذي كان فيه عند صعودي إليه نحو ٤٥ شخصاً في حين أن حمولته ينبغي أن لا تزيد على الـ ٢٥ شخصاً.

ركبت في القارب المليء بالركاب، ولم أكد أجد مكاناً أجلس فيه من صغر القارب، وكثرة الركاب الذين جمعتهم قدرة الله سويّاً في هذا القارب المطاطي، وكانوا جميعهم رجالاً سوى فتاة هي الوحيدة في القارب، يكسوها الذهول، بعد أن فقدت عائلتها، وها هي وحيدة في قارب، يبحر نحو المجهول في بحر مترامي الأطراف ليس فيه من شيء ينبئ بالنجاة.

عندما صعدت إلى القارب كنت مرهقاً لا أستطيع الحراك، أنادي بصوت واهن ضعيف: «سعود، سعود»، سمعني شخص سعودي كان معنا في القارب، عرفت فيما بعد أن اسمه (سعود النفيعي)، وأخذ ينادي معي، ثم قال لي بلهجة متفهمة لجزعي على رفيقي بأن أخاك ليس معنا في القارب، وأضاف: «طالما أنك وصلت إلى هنا احمد الله كثيراً على ذلك، وعسى أن ينجو صديقك، ويجمعكما الله».

كان (سعود النفيعي) يسهم بفاعلية في قيادة القارب منذ البداية مع أحد ملاحى العبّارة الغارقة، ولعل لوجود أبناء عم النفيعي الصغار معه في القارب دوراً في الشعور بالمسؤولية، وفي السعي في نجاة القارب من الفرق، وكان واضحاً أنه يفعل هذا باقتدار، فقد كان متماسكاً رابط الجأش.

لم يكن القارب تحت سيطرة من يحاول التحكم في مسيره؛ لأن ذلك تولاه غير الركاب، تولاه الموج باقتدار، فهو يقذف بنا يمناً ويسرة، ولا نعلم إلى أين نحن متجهون؛ لذلك كانت قيادة القارب في إعطاء التوجيهات فقط، وفي نزح الماء، وفي بث الحماس في الركاب.

وما هي إلا لحظات من ركوبي القارب، حتى أطلق رجل مصري صيحة تحذيرية بأن قاع القارب قد انخرق، وبدأت المياه تدخل القارب، فسرت في أوصال الجميع رعشة الخوف، وكأنه أيقظهم من حلم النجاة الذي استسلموا له، وأصيبوا بالرعب، وبحالة من الفوضى، إلى أن هدأهم هذا الرجل الذي أصدر الصيحة نفسها بأنه وضع قدمه في مكان الثقب ليسده، ويمنع تسرب الماء إلى داخل القارب نوعاً ما.

سمعنا بعد ذلك صوت انفجار، تلاه ضوء سطع في السماء، لم يدم طويلاً، وقد كان هذا الصوت قنابل ضوئية، مثلها مثل ألعاب العيد النارية، حيث كانت تُطلق هذه القنابل الضوئية من بعض ملاحى السفينة الذين في بعض القوارب المطاطية، وتكرر هذا الصوت والمشهد أربع مرات، كلها كانت تسعى أن تسعنا إحدى السفن المارة، وكانت عندما تنفجر هذه القنابل في السماء يضيء لنا البحر، وكأننا في وضوح النهار، ومن ثم يعود الظلام لمكانه ويلفنا.



بدأت أشعر بإعياء شديد، ودخلت في غيبوبة أو ما يشبه الغيبوبة، فقد كنت أسمع ما يقال، ولكنني أسمع من داخل بئر عميقة، ولا أستطيع التفاعل معه، وأظن السبب كان حالة الإرهاق والإنهاك التي أعاني منها إلى جانب أن أمعائي كانت ممتلئة بالمياه المالحة، وكان بجواري شاب سعودي فجلست بجانبه، وبما أن القارب كان مزدحماً فكنت من شدة تعبني أميل، وأستند إلى راكب آخر بجانبني، فكان يتضجر، وكان هذا السعودي الذي عرفت لاحقاً أن لقبه الشهري يدافع عني مبرراً تعبني، فارتحت بالبقاء بجانبه، وفي إغماءتي تلك تنهأ إلى صوت النفعي الهادئ وهو يحث الركاب على نزح المياه من القارب معه؛ إذ كانت المياه تدخل القارب والخرق قد اتسع.

كانت الساعة لحظتها نحو الثالثة والنصف من صباح يوم الجمعة؛ حين أخذ قاربنا المطاطي يبتعد عن محيط الباخرة الغارقة، ليس بالتجديف ولكن موج البحر يتقاذفنا كيف يشاء، فلا نعلم أين نحن؟

وبعد أن عاد إلي شيء من وعيي، اكتشفت أن بالقارب ستة من طاقم العبارة، كانوا جميعهم، بما لديهم من خبرة وتجربة بحرية يعملون بهمة على نزح المياه المتسربة للقارب، عدا واحد منهم، أظنه من الكوادر القيادية بالباخرة قبل غرقها، لم يكن يشارك في العمل، مكتفياً بمسالك جهاز لاسلكي يطلب به النجدة دون أن

يتلقى أي إشارة تفيد بأن لعمله هذا أي جدوى أو أهمية، ولكنه ظل مصراً على مناشداته بالنجدة دون أن يتلقى رداً من أي أحد أو جهة.

وكان هناك مسنٌ مصري لا يكف عن مناشدة هذا الملاح ألا يتوقف عن طلب المساعدة عبر الجهاز، وكأن هذه المناشدات أزعجت الملاح الذي يبرر أن بطارية الجهاز قد تنفذ إن طاول هذا المسن، ومن شدة الموقف وهوله أخذ هذا المسن يناشد الملاح أن يطلب المساعدة من إسرائيل، وكأنه فقد الأمل في الموانئ المصرية حينذاك؛ الأمر الذي أزعج معظمنا وجعلهم يهدّثون هذا المسن الذي جاوبهم بالبكاء الحار.

أخذ الموج يشد ويرتفع بين مد وجزر، وكنا نتمسك بحواف القارب، وبعمود مطاطي في منتصف القارب، وبشراعه أيضاً؛ حيث كان الموج يضرب بقوة، وكنا نسمع صوت الموجة، ولا نراها إلا عندما تضربنا، وكنا عندما نسمعها يصرخ بعض الركاب وأنا منهم: «اقمد... اقمد»، وهي لفظة مصرية نطقها؛ كي يتماسك الركاب، حيث كانت الموجة عندما تضرب القارب تفقدنا توازننا فيضرب بعضنا ببعض، وكنت أقول هذه اللفظة باللهجة المصرية، وجميع عبارتي للركاب كانت بهذه اللهجة؛ حيث إن السعوديين في القارب خمسة، والباقيون مصريون حتى إن بعض الركاب لاح بذهنه أنني مصري، ولست سعودياً.



المرعب في هذا المشهد هو صوت الموجة عند قدومها دون أن نراها، إذ نشعر بقدومها من صوت هديرها المرتفع، وكأنه صوت شلالات، فنستقبل ضربتها للقارب بقلوب هلعة من أن تقلب القارب. ومع استمرار الموج لازمنا الخوف الذي لم يفارقنا في الأصل لحظة، ولكن -بفضل الله- كان لهذه القوارب مظلات مطاطية ملتصقة بها، وهذه كما هو واضح من تصميمها تسهم كثيراً في حماية ركاب القارب من الموج وضربات القوة عند ارتفاعه مدّاً وعند هبوطه جزراً، كما تساعد على حمايتهم من أشعة الشمس المباشرة، ومن زمهرير البرد أيضاً.

في مواقف مثل هذه يحتاج الإنسان إلى دعم نفسي قوي؛ لأنه يكون فاقداً لكل حيلة، فهو أعجز من أن يفعل شيئاً، لقد كنا تحت رحمة الله تعالى في عرض البحر، وليس في الأفق ما يشير إلى نجاة أو يابسة أو حتى شبح باخرة يمكن أن نتشلتنا من البحر الهائج الأمواج، وليس من ملجأ غير الله سبحانه وتعالى، هنا يكشف الإنسان مدى عجزه، ويتجرد تماماً من كل مظاهر القدرة والقوة التي قد يستشعرها، وينسبها إلى نفسه في البر، في أحوال حياته اليومية الآمنة الهادئة الإيقاع، وفي مثل هذا الموقف يتذكر المسلم قصة نبي الله يونس -عليه السلام- حيث أخذ أحد الركاب يذكرنا بقصة هذا النبي الذي امتحنه الله في عرض البحر حين قذف به في موقف يشبه موقفنا، ولكن مع فارق هائل، ففوق شدة الموج

والبلاء الذي كان فيه أصحاب السفينة حين رموه خرج حوت من البحر ليبتلع نبي الله يونس -عليه السلام-، فقال صاحبنا الذي كان يتحدث مقارناً بين حالنا وحال يونس -عليه السلام-: إن كربتنا أخف مما تعرض له النبي الكريم، فتحن على الأقل لسنا في بطن حوت مثله، وذكرنا بدعائه في كربه الذي أخرجه منه الله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وبالفعل أخذ بعضنا يتمتم بهذا الدعاء متضرعاً من كل قلبه راجياً رحمة الله.



﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾

﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾

[هود: ٤٢]

الفصل الثامن



امتلاً القارب بالمياه، سواء بسبب التسرب عبر الثقب الذي أخذ في الاتساع، أو بسبب الأمواج التي كانت تضرب القارب بعنف، ونتيجة لذلك أخذ المطاط في التمدد والضعف ما جعل القارب مقعراً بعد أن هبط قاعه تحت ثقل الركاب، وضغطهم بأقدامهم على قاعه، وتحت تأثير الماء المتجمع الذي جعل القارب عبارة عن بركة ماء داخل البحر، وأصبحت المياه تغمرنا إلى نصف أجسامنا، وأمام هذا الوضع لم يكن أمامنا سوى أن نتشبث بحواف القارب وبالحبال التي فيه، وبشراع القارب أيضاً، وبعمود مطاطي كان في عرض القارب يربط بين جانبي القارب من المنتصف؛ حيث إن الذي لا يمسك بشيء يتزحلق إلى قاع القارب، فقد كان جلد القارب أملس، وأصبح قاعه مقعراً مليئاً بالمياه من ضغط الأقدام ومن ثقل الركاب وضربات الموج كما ذكرت، وما جعل القارب متماسكاً إلى هذه اللحظة، بعد عناية الله تعالى، هو إطار القارب المطاطي العريض ونزح المياه من قبل بعض الركاب.

بدافع من الخوف يتصرف بعض الناس بطريقة غير منطقية تتم عن الارتباك، فالمسنن الذي كان يبكي قبل قليل امتطى ظهري مدة من الزمن، حيث لم يجد موقعاً يتسلق عليه ليصل إلى شراع



القارب ويتمسك به، وكان لا يلبس سوى قميص فقط، وجلس على ظهري مدة من الزمن، وبعدها طلبت منه النزول والبحث عن مكان آخر، بعد أن أحسست بثقله، وقد استحييت منه قليلاً؛ لكبر سنه، ولكني لم أحتمل ثقل جسمه، وبقينا على هذه الحال، وبقلوب واجفة في انتظار انبلاج الفجر عسى أن تحمل إلينا شمسها بضياؤها بعض الدفء، فقد كان البرد قارصاً، وكان ازدحام الركاب يجعلهم يستمدون الدفء من تلاصق أجسادهم ومن دفء أنفاسهم، فكنا نرجو بزوغ الفجر لعل الضوء يحمل إلينا البشري بمن قد يرانا بوضوح تحت ضياء الشمس في صحراء البحر الشاسعة، والمترامية الأطراف هذه، فيهب لنجدتنا.

أتى الصباح وحمل إلينا إحباطاً شديداً عكس ما تحمل تباشير الصباح عادة؛ لأن الموج عند شروق الشمس كان في أقصى هياجه ارتفاعاً وجموحاً، حيث بلغ ارتفاعه -حسب تقديري- سبعة أمتار تقريباً، وهو يعبث بقاربنا ويتلاعب به، فمرة في القمة وأخرى في القاع، ويتذكر الإنسان في هذه اللحظة وصف الله عز وجل للموج حين قال: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢]، كان مجرد رؤية الموج قادمة تثير الرعب والخوف؛ فكأن الليل كان أرحم من النهار، حيث كشف لنا النهار مدى ارتفاع الموج وقوته، فمن كبر حجم الموج كنا لا نستطيع أن ننظر للأفق وكأننا في جبال من الموج، وجلوساً صليت الفجر بالإيماء، حتى إنني صليتها في آخر وقتها إن

لم يخرج فعلاً من هول الموقف وقوة الموج التي لم تدع لأحدنا مجالاً أن يفكر في شيء سوى النجاة من الموجة القادمة.

ولاحظت أن بعض الركاب كان في حالة ذهول، ويحدق بعيون متحجرة إلى الأشياء، فيبدو مذهولاً عما يحدث، وكأنه غير مبالي، فهو لا يبدي أي ردة فعل، بينما آخرون يبديون كأنهم أموات، لا تتحرك سوى أعينهم، واليأس قد تجذر عميقاً في قلوبهم، والباقيون وهم قرابة الثمانية، كانوا منهمكين بنزح الماء خارج القارب، وكان أكثرهم نزحاً ونشاطاً هو (سعود النفيعي) الذي تقدم ذكره فيما سبق.

في الثامنة صباحاً تقريباً، وبعد محاولات ملحة من حامل جهاز اللاسلكي جاءه أخيراً من يرد عليه، فتعلقت أعيننا وقلوبنا بالجهاز، وهو يتلقى الإشارة، وأخذ الأمل يسطع في قلوبنا، والفرح والتكبير يرفرف في سمائنا جميعاً، ومن ثم سكنا بعدما صرخ فينا الملاح؛ لكي يسمع صوت الجهاز، وأخذ يردد الملاح الذي معنا النداء نفسه بجهازه اللاسلكي، الذي منذ ركبت معهم في القارب، وهو يطلب النجدة بهذا النداء: «كاترينا، هل تسمعني؟».

وكان يطلق رموزاً أظنها تعني طلب النجدة، المهم أن أحد الأجهزة ردَّ عليه كما قلت الساعة الثامنة؛ إلا أن الرد كان فاتراً وسلبياً حيث ردَّ المجيب قائلاً بصوت خائف:

«أسمعك، وسيأتاكم إنقاذ»، ولم يزد على ذلك.



وعندما حاول الملاح الذي معنا مواصلة الحديث معه لم يستجب هذا الشخص الذي أظنه كان يغلب عليه أنه مصري الجنسية، استمر الملاح في الإلحاح على هذا الشخص أن يتواصل معه؛ لتحديد المكان، ولكن لا حياة لمن تنادي حتى نفدت بطارية الجهاز اللاسلكي.

هذا الاتصال، وعبارة: «سيأتيكم إنقاذ» أعطتنا دفعة قوية للأمل في الحياة، وفي الاستمرار في نزح المياه، وكأن تفكير البقاء والحياة عاد بعدما كنا نتخيل مشهد النهاية كيف سيكون، ولعل هذا الرد بالجهاز اللاسلكي جعل كفتي الموت والحياة متساويتين بعد أن كانت كفة الموت عندنا هي الراجحة.

ولكن؛ وبعد مضي قرابة الساعتين مالت كفة الموت من جديد، وأخذ الأمل في النجاة يتبخر؛ حيث لم يأتِ الإنقاذ الموعود، وأصيب قاربنا بخرق جديد ما فاقم أزممتنا، حيث زادت المياه التي تدخل القارب، فأصبح لا بد من مضاعفة الجهد؛ لإخراج المياه من القارب وإلا فسيغرق القارب.

وانهمك بعضنا في هذا الجهد، فأخذنا ننزح المياه بأيدينا، ننزح قليلاً ونستريح قليلاً، ولكن ما جعل القارب يقاوم -بعد فضل الله- هو حواف القارب المطاطية، كما ذكرت سابقاً، وهي عبارة عن طوق إسفنجي يغطيه جلد أملس، وكأنه طوق سباحة.

بدأ يعم السكون بين الركاب، فبعضنا انهمك في إخراج المياه،



وآخرون كأنهم ميتون، لا تكاد ترى منهم أي ردة فعل، حينها أخذت أفكر في أسرتي، وما يحدث لهم عندما يعلمون بفرقي في البحر، ومدى الألم الذي سيشعرون به، وأحسست بألم من هذا الشعور يوازي ألمي من شعوري بالغرق، واجتاحني شعور حارق بالذنب، وتخيلت مدى ما يكون قد انتابهم من جزع وحزن ومبلغ ذلك بعد سماعهم بخبر الكارثة وغرق العبّارة، وشعرت بالأسى؛ لأنني تسببت في جزعهم وحزنهم بدلاً من أن أكون مصدراً لفرحهم وسعادتهم، وغصّت بي عبءة سدت حلقي، وتمنيت لو أنني أستطيع أن أبلغ أسرتي أنني لا أزال حيّاً، وألا يقلقوا عليّ، ولكن هيهات لي ذلك، وأنا أسيرُ في لجة البحر.

أخذت الساعات تمر، وبدأت تشير عقارب الساعة إلى الثانية عشرة ظهراً، ولم يأت الإنقاذ الذي وعدنا به عبر الجهاز اللاسلكي، ولا نزال أسرى في أمواج هذا البحر المتلاطم.

في هذه الأثناء، وأنا أجول بناظري فيمن حولي في القارب فوجئت بوجه جديد بينهم لم أره منذ ركبت القارب، وعندما تكلم ظهر لي أنه سعودي.

سألته: «أين كنت؟».

فقال: «إنني كنت أطفو بالجوار من القارب؛ حيث إن الركاب لم يسمحوا لي بالركوب على القارب ليلة البارحة، عندما كانوا يطردون كل من يقترب منهم، فبقيت طول الليل متمسكاً بحبل



يتدلى من القارب؛ لكي لا يغيب ويبتعد عني، وكنت عندما يفلت الحبل مني أسبح وأحاول اللحاق والإمساك به مرة أخرى، واقتربت قبل قليل منكم وطلبت الركوب معكم، فأركبني أحدهم، ولم تحدث ضجة من ركوبي كالتي حدثت ليلة البارحة».

أخذت أتحدث معه، فأخبرني بأنه من محافظة وادي الدواسر، وكان يتمتع بابتسامة تلقائية جميلة.

في الواحدة ظهراً تقريباً صليت صلاة الظهر بإيماء رأسي، ولم تكن الصلاة في القارب معلنة، ولم تكن جماعة؛ بل لم أر إلا بعض الركاب يصلون، كل منهم يصلي وحده، بينما الباقيون كأنهم أموات في ثياب أحياء.

بعد أن صليت سمعنا صوت محرك طائرة هليكوبتر، ورفعنا أعيننا بلهفة، وأخذ بعضنا يلوح بطريقة هستيرية، وهو يصرخ، وأخذت الطائرة تحلق فوقنا، واستبشرنا خيراً بنجاة جديدة، وتسببت حركة بعضنا هنا وهناك لمطالعة الطائرة في زيادة المياه داخل القارب، الذي كان ينوء أساساً بثقل العدد الكبير من راكبيه والخرق التي تعرض لها، وتوقف نشاط بعض من كانوا ينتشلون المياه من القارب بسبب انشغالهم بالطائرة ومتابعتها، وقد أحدث ظهور الطائرة بالفعل الكثير من الفوضى في القارب، فقد كثرت الحركة فيه بطريقة عشوائية، إلا أن الطائرة استدارت عائدة من حيث أتت، واختفت في السماء، فعلم بعضنا ذلك متفائلاً بأنهم

جاءوا للاستطلاع، ولتقدير حجم الإمدادات والمعدات اللازمة لإنقاذنا، ومن ثم فإن النجدة ستأتي قريباً، فقد فرجت الأزمة.

كان من الواضح بالنسبة لي أن هذا كان سراً أكثر منه حقيقة، فحتى إذا كان هذا التخمين صحيحاً، فالسؤال الذي لا يستطيع أحد الإجابة عنه هو: متى ستأتي هذه النجدة؟ وما الذي سيحدث خلال الوقت الذي سيستغرقه حضورها؟

وبالفعل، فقد كان توقع بعضنا صحيحاً، وحدث شيء جديد زاد من مشكلتنا؛ إذ حدث فتق آخر في القارب لتصبح بالقارب ثلاثة خروق، فازداد الوضع سوءاً، وغمرت المياه القارب من جديد، وأصبح القارب مهدداً بالغرق، ومضت قرابة ساعتين ونصف؛ حيث كانت الساعة تشير إلى الثالثة والنصف، ولم يأت الإنقاذ الذي توقعنا أن طائرة الهليكوبتر سترسله لنا، فخيم على الناس شعور طاغ باليأس والإحباط.



القارب يتمزق والموت يلتقط الأرواح

الفصل التاسع



ما إن نهدأ قليلاً؛ حتى يثير مخاوفنا بعضهم بما يعتريه من ضعف وجزع، فقد أصيب أحد الركاب بحالة هستيرية من الجهد والإرهاق والضغط العصبي، حيث أخذ شاب يصيح: «لا أحد يطفئ مكيف الاستراحة»، وظل يردد جملة هذه، وأخذ من حوله يهدئه، ولكن - حقيقة - هذا جعلنا نشعر بفداحة موقفنا، إلا أنني رأيت ما جعلني أكثر تفاؤلاً من غيري - إن صح التعبير -، فقد داعبني الأمل مرة أخرى حين رأيت طيراً يحلق في السماء، ورأيت في ذلك بشارة بأننا قرب ساحل ما، وأننا على مقربة من اليابسة، الأمر الذي دعمني نفسياً، وأشاع بعض الارتياح في قلبي.

كانت الهواجس والخواطر تزورني، وتراودني بين الفينة والأخرى، ومنها أنني أصبحت أفكر في نهايتي، وفي الموت الذي أفر منه، وها هو قد أتى وحن، وكنت أتمنى أن تكون نهايتي غير هذه، وقد كان أحد الركاب (المسن المصري) ليلة البارحة يطلب من الملاح صاحب الجهاز أن يطلب النجدة حتى من إسرائيل؛ حيث إننا قريبون منها، الأمر الذي لم يلقَ اهتماماً أو ترحيباً لا من قبل الملاح ولا من قبل أحد من الركاب، وكأن هذا الراكب ذكرنا بعدوان إسرائيل على غزة ولبنان الذي كان حينذاك في أوجه، تذكرت هذا



الموقف الذي عاد لي الآن، ولا أعرف لماذا، وقد يكون لأنني نظرت إلى وجه صاحب هذه الفكرة، المهم أنني شعرت بأسى، كيف أننا نفصل عن الموت الذي يواجهه إخواننا هناك في جهاد للحفاظ على بلاد الإسلام، ونحن هنا نواجهه على هامش رحلة سياحية، هذا شعوري أنا كسائح وإلا فإن كثيراً من ركاب السفينة حجاج عائدون وآخرون يكافحون من أجل الحصول على الرزق ولقمة العيش الحلال، وكنت بين الفينة والأخرى أحلم ببقعة يابسة صغيرة في وسط هذا البحر المتلاطم؛ لأعثر فيها وجهي لله.

كما أن لدي مبلغاً ليس بالكثير في حسابي في البنك كنت أود لو أصرخ وأنا في وسط البحر ليسمعني من بخارجه ويتصدق بهذا المبلغ كله قبل أن أموت غرقاً ولكن -هيهات هيهات-.

هذه الهواجس والخواطر كنت أبجر معها، ولكنها لا تدوم طويلاً لأعود إلى قلب الحدث وقلب المعاناة وتهديد الغرق الذي يلوح بأمواجه علينا بين الفينة والأخرى.

وفي الساعة الرابعة والنصف عصراً تقريباً صليت العصر أيضاً إيماءً؛ حيث لا أستطيع الصلاة إلا هكذا، وسط ازدحام الركاب، وامتلاء القارب بالمياه.

أخذ الموج في الارتفاع من جديد، وأصيب قاربنا بخرق رابع، وأصبح القارب مليئاً بالمياه، ومهياً للغرق، وصرت أنتظر متى يغرق قاربنا، اقترح قائد المركب (الملاح المصري صاحب الجهاز) أن



يخرج بعضنا من القارب تخفيفاً لحمولته؛ لكي يتم ربط الخروق التي في القارب؛ لأن القارب إن استمر على هذا المنوال فقد يفرق ويفرقنا جميعاً، وقال للركاب كلمات أخافتهم، وجعلتهم يتفاعلون مع كلامه، وهي: «انتو حرين، عوزين القارب ما يفرقش، لازم نص الركاب على الأقل يطلعوا ونربط القارب».

فأخذ بعض الركاب في الخروج من القارب، وكان منهم (الشهري) الذي كنت بجانبه ليلة البارحة عندما كنت متعباً، والذي تعاطف معي وعاملني بلطف عندما كنت أعاني من الإعياء والتعب حينذاك، وقد خرج مع (الشهري) من القارب مجموعة من الركاب، وقد كادوا يفرقون جميعاً بسبب ارتفاع الموج، فعادوا جميعاً إلى القارب، وكان القارب يهتز، ويتميل عند عودتهم بفعل ضربات الموج، ورأيت صاحبي (الشهري)، وهذا ما علق بذهني من اسمه، يحاول جاهداً السباحة، ومقاومة المد والجزر ليصل إلى القارب، وعندما ركب في القارب، أخذ يشير بأصبعه إلي، فعرفت أنه يطلب مساعدتي أنا بالذات، فمددت يدي له، وأجلسته بجانبني، ورجوت الذي يجلس قربي أن ينزح الماء بدلاً عني، أو أن يمسك بيد الشهري، فاختار الأولى، وكان (الشهري) لا يستطيع الجلوس من الإعياء، والقارب مليء بالمياه، فبقيت ممسكاً بـ(الشهري)، وطلبت من أحد الركاب بجانبني أن يمد يده، ويساعدني؛ كي نخرج المياه التي دخلت جوفه؛ إلا أن محاولته كانت يائسة لا أثر لها، ولا فائدة منها، وخصوصاً أن ضربات الموج ازدادت قوة وضراوة، وأيقنت أن القارب كله لا محالة غارق.



ثبّت قدمي في القارب المليء بالمياه، ورفعت قدمي الأخرى ليجلس (الشهري) على فخذي، ووضعت رأسه على كتفي ليظل طافئاً على السطح، ولا يغرق حيث إن القارب أصبح مملوءاً بالمياه، وتمسكت بحافة القارب، وزاد الموج من شدته، وأخذ يعصف بالقارب، وبدأ يؤذي الركاب حتى الذين لم يخرجوا من القارب قبل قليل.

وما هو إلا قليل حتى أحسست ببرودة وثقل على كتفي، فنظرت إلى (الشهري) وإذا به كأنه راح في غيبوبة، فنظرت إلى وجهه، ثم وضعت يدي على وجهه فإذا هو بارد جداً، فقربت أذني من فمه لعلّي أسمع أو أحس نفساً له، وحاولت تحريكه وإيقاظه فلم أجد أثراً للحياة، وعلمت حينها أنه فارق الحياة، وكان ذلك قبل غروب الشمس بقليل، فقمّت بربط جثته في القارب بواسطة حبل سترته، وبغياب الشمس غاب آخر أمل لنا في النجاة، وتلاشى.

وكان موت (الشهري) أعلن بداية دبيب الموت في ركاب القارب، إضافة إلى أن عملية نزح المياه وإخراجها من القارب لم تعد تجدي كثيراً، فقد امتلأ القارب على آخره، حيث زادت فتوق القارب واتسعت فتحاتها، ونشر اليأس والإحباط ثوبهما الكثيف، حتى غطى الجميع، ولم يعد أحد يثرثر سوى الصمت والوجوم، فلم يعد هناك من يطرح رأياً أو اقتراحاً، فقد غرق الجميع في لحظات من اليأس والسكون استعداداً لكل الاحتمالات، فأسوأ الاحتمالات كانت واردة ومتوقعة الحدوث ومنتظرة، واستسلم كل من في القارب لهواجسه في انتظار المجهول متلفعاً بصمت مطبق.



غروب الشمس وصيعة الأمل

الفصل العاشر



في لحظات مثل هذه، يواجه الإنسان عجزه في مواجهة إرادة الله التي لا تقهر، متجرداً من الحيلة والإرادة، لا يملك سوى التضرع لخالقه، يسأله الرحمة واللفظ، ويتذكر الإنسان في لحظات مثل هذه ما ارتكب من معاصٍ وذنوبٍ وآثام، فيلجأ إلى الله طالباً المغفرة والعفو والرحمة، ويغتسل بالدعاء والتضرع، وكأنه ليس ذات الإنسان الذي كان يمتلئ تيهاً وفخراً ومرحاً في الأرض بين الناس غير مبالي، ولعله العذاب الذي باطنه الرحمة؛ لأنه يغسل الإنسان من ذنوبه، ويجعله يتعلق بحبل الله، ويغسل القلوب مما علق بها من أهام القوة، فلا تجد القوة إلا عند القوي الجبار، فتلجأ إليه خيفة وتضرعاً، ترجو رحمته ومغفرته ولطفه.

كان هذا هو حالنا قبل غروب الشمس بقليل، حينما صرخ أحد الركاب بصوت مدوّ، وهو يصرخ بفرح هستيري: «سفينة.. سفينة.. سفينة»، التفتُّ، وكأنني كنت غارقاً في لجة من اليأس والقنوط، مثلما فعل الجميع فور سماعهم صراخ الرجل إلى حيث كان يشير بأصبعه، وبالفعل كانت إحدى السفن الضخمة تبحر بعيداً عنا وكان تأثير رؤية السفينة في تلك اللحظة ونحن في موقفنا ذاك أشبه بالحلم، وبالفعل هذا ما أحسست به لحظتها،



حيث انتابني شعور غريب، كأن كل الذي حدث من قبل، وكل ما يحدث الآن، إنما هو مجرد حلم.

اجتاح الركاب شعور عارم بالفرحة، فأخذنا نهل ونكبر ونحمد الله، كان بعضنا يبكي فرحاً وشكراً لله، وأخذ آخرون، وقد تلاشى الإحساس بالتعب والجوع والظمأ، مثل الأطفال يطلقون صيحات الفرح بلا تحفظ، ويأخذون بعضهم بعضاً بالأحضان، وأخذنا نلوح للسفينة، ونطلق الصيحات؛ لعل السفينة تتجه نحونا، ولكنها تجاوزتنا وذهبت، وأكملت مسيرها، ولم يعد جديداً علينا تبخر الأمل وعودة الإحباط، فقد شعرنا به أكثر من مرة منذ الصباح، ومن جديد يتزاحم ركاب القارب على فتحتي القارب، ما أعاق نزح المياه، مع أن الذين ينزحون المياه صاروا قلةً.

وعندما بدأ البحر يلبس ثوب الليل من جديد، بدأنا نرى أنوار سفينتين متعاكستين في الاتجاه إلا أنه بعد قليل ظهر لنا أن إحداهما تتجه نحونا مباشرة، فعاد الفرح للقارب من جديد، وعاد مسلسل الفرح والصراخ والبكاء والشكر والحمد لله من جديد، وتأكدنا أن هذه السفن سفن إنقاذ، فسرى الاطمئنان إلى قلوبنا.

وفي خضم هذه المشاعر من قنوط ويأس ثم أمل ودعاء، ثم بشارة ونجاة، تستطيع أن تتصور مدى عمق الصدمة النفسية التي كان يعانيتها من نجوا في هذا القارب حين تجد أن أحدهم بدأ يتفقد حاله، حال رؤيته السفينة، وقد تيقن من نجاته، فأخذ يصرخ فجأة بأعلى صوته: «يا جماعة أنا اسرقت»



وكانه فكر في تلك اللحظة في اتخاذ الإجراءات القانونية ليأتي بالشرطة إلى القارب لإجراء تحقيق جنائي، وتفتيش جميع من في القارب للبحث عن محفظته المسروقة!

وإلى اليوم أجد نفسي متعجباً من قدرة الإنسان على النسيان، إذ لم أجد تفسيراً لهذا التصرف، وإلا كيف لرجل كانت حياته كلها، ليست على المحك فحسب، بل كان على شفا حافة الموت، وكان الموت يتربص به مع كل ثانية في عرض البحر، وما إن تلوح له فرصة النجاة من الموت حتى يقفز عقله إلى محفظته؛ ليتهم الآخرين بسرقتها، وهم في ذلك الموقف الذي يتمنى فيه الإنسان لو يفتدي نفسه بكل ما يملك في هذه الحياة لينجو، ولا يخطر بذهنه فقد محفظته في أثناء محاولاته المستميتة للبقاء على قيد الحياة!

دنت السفينة منا، وكان ثمة رؤوس كثيرة تطل علينا من أعلى السفينة، وكانت بعض الأيدي والأذرع تلوح لنا، وبالكاد كان يصلنا ما يقولون لنا، كانت الأمواج على حالها، والسفينة تقترب منا، حتى أصبحت بجانبنا، فأخذوا يرمون بحبل لنا؛ لكي يربط القارب بالسفينة، واستغرق هذا أيضاً وقتاً إضافياً، وكنا نشعر بخوف من أي طارئ يعوق صعودنا إلى سطح السفينة، أو يحول بيننا وبينها، وخصوصاً من شدة الموج، ثم شاهدنا حبلًا واحداً يلوح من أعلى السفينة فوق رؤوسنا ممتداً إلى أسفل، والملاحون



من أعلى السفينة يصرخون بأن نمسك بالحبل المتدلي، والتسلق به إلى سطح السفينة التي كان من الواضح أنها باخرة شحن أو نقل بضائع تجارية.

فأخذ الركاب في رفع الأيدي للإمساك بالحبل، وأخذ بعض الركاب يركب فوق بعض للإمساك بالحبل، وكأن المشهد يشبه صنارة صياد ومجموعة من السمك، واستطاع قرابة اثني عشر راكباً الإمساك بالحبل والنجاة إلى السفينة، وبدأت أشعر بضيق التنفس من أثر التزاحم، ومن خروج بعض الأشخاص، وركوبهم فوق الشراع الخفيف الذي يستند من يجلس فوقه على ظهورنا، وأخذ الركاب يخرجون فوق الشراع، وأنا معهم حتى أصبح الشراع فراشاً للقارب، وعندما خرجت سمعت الملاحين يصيحون: «أمسك كويس اللي حيوقع مش حنجيبه».

وسمعت أن هذا حصل فعلاً في عملية إنقاذ قارب آخر، ومرّ الحبل من أمامي ففشلت في الإمساك به ثم مرة أخرى فشلت أيضاً، وفشلت في الثالثة أيضاً، وفي المرة الرابعة استطعت أن أمسك بالحبل، ولففته على يدي، وأخذوا يرفعوني إلى السفينة التي كانت مرتفعة قرابة العشرين متراً، وقد أدى لف الحبل إلى عسم يدي.

ولعل عملية الإنقاذ ستكون سهلة لو أنزلوا قوارب السفينة، ومن ثم رفعها إلى السفينة بعد أن يتم ملؤها بالفرقي، أو بنزول



الملاحين في تنظيم إنقاذ الركاب ومساعدتهم، وفي فض الازدحام
والتشاجر على الحبل، ولا أعلم هل تم إنقاذ جميع من في القارب
أم لا؟



سفينة النجاة... أين رفيق السفر؟!

الفصل الحادي عشر



عندما ركبت في السفينة، أخبرت الملاح بأن هناك جثة مربوطة في القارب وهي جثة الشهري، وطلبت منهم أن ينتشلوها إلى السفينة؛ كي يستلمها أهل الميت، وكان يظهر علي التعب الشديد، فيبدو أن الجهد الذي بذلته طيلة اليومين السابقين تجمع في تلك اللحظة التي شعرت فيها بأنني قد نجوت، وهذه ردود فعل انعكاسية غريزية معروفة، حيث يكون الجسد في أقصى حالاته توتراً واستنفاراً في لحظات الخطر، وبعد زوال الخطر يعود ليهدأ فجأة، ويعود ليظهر كل ما اختزنه من ألم بعد زوال تأثير الأدرينالين وانحساره من الأنسجة العضلية - الأدرينالين: هو هرمون تفرزه غدة الكظر وهي تقع فوق الكلية، حيث ينتج في الخلايا أليفة الكروم في لب الكظر، وهو يعمل على تحضير الجسم للمجهود أو التوتر في حالة الخوف مثلاً أو الإثارة - وهكذا، فبعد أن وصلت إلى سطح السفينة مسحوباً بالحبل من القارب أحسست بألم مبرح في رسغي، ثم في جسدي كله، حتى إنني عجزت عن السير فأخذت أحبو، وساعدني من كانوا على السفينة، وأرقدوني ممدداً على ظهري ماداً قدمي على آخرهما، وأحضروا لي، مثلما أحضروا للجميع كوباً من الشاي الأحمر الساخن من غير سكر، وقطعة بسكويت، لم أكن



ولعدة دقائق أفكر في شيء محدد، فقد كان عقلي، مثل جسدي، متراحياً تماماً، ومستسلماً للراحة والاسترخاء، ويحاول أن يجمع أشتاته المتناثرة.

أول خاطرة طرأت على ذهني بعدها بقليل، كانت سؤالي من كانوا حولي مفزوعاً: «هل رأيتُم شاباً سعوديًّا اسمه (سعود)؟».

وفي اللحظة التي طرق السؤال ذهني، هب جسدي متفاعلاً مع ذهني، ورحت أسأل طاقم الباخرة السؤال نفسه: «هل رأيتُم شاباً سعوديًّا اسمه (سعود)؟».

وكأنهم يعرفون أسماء جميع من كانوا على العبّارة، إلا أنهم فيما يبدو كانوا على دراية ومعرفة وخبرة بمثل حالات المنقذين من الكوارث المشابهة؛ لأنهم لم يبدووا انزعاجاً أو توتراً من سؤالي اللحوق، إلا أن عدم مبالاتهم بالإجابة عن سؤالي جعلتني أشعر بحزن جارف يجتاحني، خاصةً وقد أجابني أحدهم بطريقة عرضية، وكأنه يحاول التخلص من مريض مزعج بأن «أخاك (سعوداً) غير موجود معنا على السفينة، ولا نعلم أين هو»، حينها تيقنت بأنه من الذين لقوا حتفهم، ولا أدري لماذا قفزت صورته الآن أمامي، وأخذ شريط من الذكريات، يتسلل إلى ذهني، ويعرض صوراً لمواقف حدثت بيننا، وكأنها تحدث الآن.

وتذكرت أننا قبل شهر كنا في رحلة تخييم على شاطئ محافظة القنفذة، جنوب منطقة مكة المكرمة، وبرغم نشاطه وحضوره



الطاغي، والمرح طيلة الوقت، إلا أنه قط لم يشاركنا السباحة، على الرغم من أنها كانت نشاطاً يومياً شارك فيه الجميع، وكان تبريره لعدم المشاركة في السباحة هو أنه لا يجيد السباحة، ولا يحبها، أفقت من شريط الذكريات الذي يرفض الانقطاع، وأنا رافض تماماً فكرة أن تنتهي حياة صديق لي بهذه البساطة، وكنت عندما أسأل أحد ملاحى السفينة؟ كان يجيب عن تساؤلاتي بطريقة محايدة وباردة، وبالفعل، لم نكن نحن ومأساتنا التي ستظل عالقة بأذهاننا العمر كله، أكثر من قصة، ربما يحكيها الملاحون لبحارة آخرين في أحد الموانئ عن سفينة غرقى نجا بعض ركابها بأعجوبة.

فجأة وقع نظري على ثلاثة أطفال سعوديين تم انتشالهم من موقع آخر، أكبرهم كان في سن الرابعة عشرة من عمره تقريباً، وأصغرهم في العاشرة، وكان منظرهم، وهم على هذه الحال من الضياع والحيرة قد أعاد لي رشدي وتماسكي، ولا شعورياً وجدتني أتمالك نفسي أمامهم، وكأنني أعتذر لهم وأواسيهم.

فسألت أكبرهم: من هم؟ ومن أين؟ ومن كان معهم؟ وما مصيره إن كانوا يعلمون شيئاً عنه؟

ما حكاة هؤلاء الأطفال لي إجابة عن أسئلتني جعلني أنظر بعين أوسع، وبإدراك أعمق لحجم الكارثة وكبرها. فقد قالوا: إنهم كانوا بصحبة والدهم.



«وأين هو الآن؟» سألتهم.

فقالوا لي: «إنه قد مات غرقاً».

لم أتقبل الإجابة بسهولة، فقلت لهم -ربما طمأنة نفسي أكثر منهم-: «وكيف تأكدتم من ذلك؟ ربما سبح، وضاع منكم في البحر، وسلك طريقاً آخر!».

فأكدوا لي أنه لم ينج: «لقد غرق، ومات أمام أعيننا، فقد غطس في الماء ولم يخرج مرة أخرى، وركبنا نحن أحد القوارب المطاطية»، قال هذا لي أكبرهم، وهو واثق مما يقول.

اجتاحني شعور عميق بالعطف على حالهم ووضعهم المأساوي بعد أن شهدوا مصرع والدهم أمام أعينهم غرقاً، وهم على سفينة إنقاذ لا يعرفون فيها أحداً، ولا يعلمون أين ستذهب بهم.

استمرت السفينة في البحث عن ناجين منذ أن صعدناها قرابة الساعة الثامنة، وكان حال الركاب في السفينة هادئاً، ولم يكن ثمة حديث كثير بين الناس الذين أنقذتهم السفينة، فقد انزوى كلُّ منهم في ناحية يجتر ما حدث معه، ويستعرض شريط ما واجهه خلال الساعات التي مضت؛ منذ أن أبحرت الباخرة، وإلى أن تم إنقاذنا، بعضهم -ومنهم أنا- لم يكتفِ بالعودة إلى لحظة مغادرة الباخرة العبارة ميناء ضباء، فقد عاد بي شريط الأحداث إلى الوراء أبعد من ذلك، لأتذكر بحثي الحثيث المحموم عن حجز جوي



مع الزملاء في مكتب الصحيفة، وتذكرت الطريق والمسافة بين جدة وضباء، وزخات المطر، والمطعم البخاري في سوق ضباء، ومحاولتنا النوم في السيارة، وعندما توقف شريط الذكريات في اللحظة التي استيقظ فيها (سعود) من نومه، وهو يقول بانزعاج: إنه يشم رائحة الدخان، أحسست بغصة حادة في حلقي، واحتقن الدمع في عيني، أحسست برغبة لاشعورية جارفة بالانفجار في البكاء، إلا أن حالة بعض الركاب الناجين المساوية كانت دائماً تتشلني من الانهيار والبكاء على ابن العم الذي فقدته، مثل أولئك الأطفال وغيرهم ممن فقدوا ذويهم إلى الأبد.

استمرت السفينة في الإبحار والتوجه إلى ميناء الفردقة، وكانت تتوقف من حين لآخر لتتقذ شخصاً ما، ونحن ننتظر من يدخل علينا، وكنت أدعو الله أن يكون (سعود) من الناجين، ولكن (سعوداً) لم يكن من ضمنهم.

من بعيد تراءت أضواء محافظة الفردقة، مثل شبح غسقي يلوح من بعيد يغطيه الضباب، كانت الساعة حينها قرابة الثالثة من فجر يوم السبت، وشيئاً فشيئاً بدأت تتضح معالم المدينة بمآذنها المتعالية.

سبحان الله، لا إله إلا هو، كيف كنا نخطط لدخولنا مصر، وكيف أدخلها الآن أنا وحدي، وليس معي صاحبي في الرحلة؟!

كانت تلك أول خاطرة عندما اقتربنا من ميناء الفردقة، وبدأت



السفينة تستعد للوقوف، وكنت أتحرق شوقاً للوصول إلى اليابسة لأسأل عن (سعود)، وشيء من الأمل يجيش في صدري بأنه حي، وقد نجا على سفينة إنقاذ أخرى.

وعندما توقفت السفينة في ميناء الغردقة، وعندما اجتمع الركاب للنزول رأيت غير بعيد من بينهم طفلة في السابعة من عمرها تقريباً لم أرها عندما ركبت في سفينة الإنقاذ، وكانت تلفت النظر بوجهها الطفولي الأخاذ، كانت تقف صامتة، لم تكن تبكي ولا تتحدث، كان الحدث أكبر من أن تستوعبه طفولتها البريئة، سألت من كان بقربها: «من هذه الفتاة؟ وأين أهلها؟» فأجاب بأن كل ما يعرفه عنها هو أن اسمها آلاء، تحركت نحوها وبني شعور دافق بالشفقة والحزن، وخصوصاً عندما علمت أنه تم إنقاذها من البحر، ولم يجدوا معها أحداً من أهلها، وقبل أن أصل إليها وضع أحدهم عليها (شماغاً أحمر)، ولا أعرف كيف وجدوا (الشماغ) في السفينة؟ لعله أحد موظفي السفارة؛ حيث بدأ يصعد إلينا رجال كثر من الميناء، ومنهم موظفو سفارة المملكة، وعندما وُضع (الشماغ) عليها سألت على خديها دموعٌ حارة انطلقت بصمت، وكأن هذا (الشماغ) الذي وُضع عليها لتدفئتها قليلاً أجاش ذكرياتها حيث ذكرها بـ (شماغ) أبيها الذي تحتاج إليه في كل أوقاتها، فما باله في وقت كارثي كهذا، تتصدع منه قلوب الكبار، فكيف بقلوب الصغار؟! وضعت يدي على رأسها، والعبرة تخنقني، أخذت أتحدث معها



محاولاً تهدئتها، وأخذت أطمئنها بأن أهلها بخير إن شاء الله، وأنهم سينجون في سفن إنقاذ أخرى، وأنها ستقابلهم قريباً، فالناجون كثر، وكانت هذه العبارات مختلفة، وليس لها مصدر سواي، ولكن لم أجد أفضل من ذلك لأقوله وسط شلال الدموع الذي يصب من عينيها من دون صوت بكاء.

علمت لاحقاً أن هذه الطفلة من أسرة مكونة من خمسة أشخاص، أبو آلاء (طارق) وزوجته وأولادهما الثلاثة: (ولاء) ١٦ سنة، و(سيف) ١٤ سنة، و(آلاء) ٧ سنوات. وعلمت أنه عندما بدأت السفينة بالميل بشدة جهة اليسار، وقع (طارق) وأسرته والركاب الموجودون في الطوابق العليا سقوطاً في اتجاه البحر، وتناثروا في البحر في ظل غرق بقية الركاب الذين كانوا بالجانب الأيسر للسفينة، حتى أصبحت أسرة (طارق) في ثوانٍ تطفو على سطح البحر، والسفينة تغرق أمامهم، والعتمة تملأ السماء تماماً، لدرجة أنهم لم يستطيعوا رؤية بعضهم بعضاً من شدة العتمة والظلام.

وبدأت رحلة الرعب لـ(طارق) وأسرته، وأصبح الصوت والنداء هو الوسيلة الوحيدة التي يمتلكونها وسط العتمة والموج الغاضب، لكن الصوت لم يصمد أمام الموج الذي شتت شملهم، فالجميع يبحث عن حياة خارج البحر، وكما قال طارق فيما بعد: «كنت أنا وعلي (أحد المصريين) نمسك بصندوق تبين لنا أن به قارب نجاة، وكنت قد ناديت على زوجتي، فوجدتها بالقرب مني، وسألتها عن

البنات وسيف، وأخبرتني بأنهم معها، وبدأنا أنا وعلي نحاول أن نفتح الصندوق لإخراج القارب لكنه أبداً لم يفتح، وبعد محاولات وجدنا قارب نجاة يتجه نحونا، فتشبثنا به، وقاموا بسحبنا إلى الداخل وحينها كنت أنادي على زوجتي وبناتي ولم أسمع لهن أي صوت، واختفين تماماً».

كانت زوجة طارق قد أخذها الموج المتلاطم بعيداً عن أولادها أيضاً، ولم يبق سوى ولاء وآلاء ممسكتين ببعضهما، وحينما اقترب من ولاء قارب مطاطي عليه بعض الناجين انتشلها دون أختها الصغرى، وكما تقول: «سحبوني إلى داخله، وجئت أتناول يد أختي، فوجدت الموج قد أخذها بعيداً عن القارب، إلا أنني وجدت طفلاً صغيراً يمد يده نحوي يطلب مني أن أسحبه، ففعلت، وعيني تبحث عن أختي».

وكانت (ولاء) ضمن خمسة عشر فرداً على قارب مطاطي متهالك، وكان شعورها بالخوف من الفرق أكثر ما سيطر عليها، وتقول: «كنت أتساءل: ألن يأتي أحد لنجدتنا؟» واستمرت رحلتهم عبر القارب المطاطي ما يقارب ست عشرة ساعة، حتى عثرت عليهم طائرة مروحية أخذوا ينادونها إلى أن وجدتهم، وكما تقول: «عشروا علينا مساء يوم الجمعة»، وتتابع: «كنت خائفة جداً، خاصة أنني رأيت بعض الركاب كانوا قد غرقوا وطفوا على سطح البحر، وكان اثنان قد رُبطا خلف القارب الذي نركبه وهما ميتان، والقارب يجرحهما.



وما حدث مع (ولاء) كان قد حدث مع (سيف) و(آلاء) اللذين تمّ انتشالهما بعد غرق السفينة، ليكونا ضمن قوارب نجاة مطاطية، إلا أن (سيفاً) كان قد تم العثور عليه مع بعض الناجين بعد مرور ست وثلاثين ساعة من بقائهم في البحر، وكان قد تضاعل الأمل في العثور عليهم، خاصة أن (سيفاً) طفل صغير، لكن رحمة الله كانت واسعة».

ولم يحالف الأم الحظ في العثور على قارب مطاطي كما حصل مع أسرتها، فظلت في عرض البحر فترة خمس عشرة ساعة تقريباً، هي ورجل كان ممسكاً بابنه الصغير، إذ حاولوا البقاء معاً، بانتظار أحد ما يقدم لهم النجدة، إلا أن الرجل كان ضعيف المقاومة، ولم يستطع المكوث كثيراً في الماء وفي ظل البرد والجوع، مات تاركاً لها ابنه الصغير الذي أمسكت به، محاولة حمايته من الموج ورفعته عنه، لكنه كان قد ابتلع كمية كبيرة من البحر، ومات بين يديها، فتركته للبحر، وكان قلبها معلقاً بالأمل، والقلق يفطر قلبها على أولادها، خاصة بعد موت الطفل الذي كان معها، حتى عثر عليها قارب رآها، فانتشلها مساء الجمعة، وبذلك نجت عائلة (طارق) من الموت.

وهناك أيضاً قصة مشابهة لقصة زوجة (طارق)، عن أم كانت تحمل طفلها على كتفها طيلة الليل، وهي تطفو على سطح الماء، وصغيرها متعلق بكتفها، وعندما عثرت على قارب مطاطي، وأراد من في القارب إنقاذها، هي وطفلها، أتت موجة عالية قوية وقذفت بهما بعيداً، وموجة بعد موجة حتى سقط صغيرها من يدها لتبتلعه



الأمواج، وهي تغمس يديها في البحر؛ بحثاً عن طفلها بين الأمواج، علّها تعثر عليه، ولكنها لم تجده، تضرب على غير هدى في البحر، وركاب القارب يحثونها لإنقاذ نفسها قائلين لها: «لقد غرق طفلك، فأنقذي نفسك الآن قبل أن تلحقى به، وتموتي غرقاً»، حتى أركبوها في القارب، وهي تشهق من البكاء.

وبما أن الحديث عن نجاة بعض النساء، وعن المعاناة التي عايننها، فهذه قصة امرأة سعودية كانت برفقة زوجها، وصلاً إلى ميناء محافظة ضباء متأخرين، ولم يجدا حجراً على الغرف الخاصة، فحجزا على السطح، وصعدا السفينة، وأخذا مكانهما على السطح؛ حيث كان البرد قارصاً، ما جعل درجة حرارة زوجها ترتفع، وعندما اشتعلت النيران، وبدأت السفينة تغرق، قفزت هي وزوجها إلى البحر، بعد أن لبسا ستر النجاة، وعندما سقطا في البحر فرقهما الموج، فاختفى زوجها الذي اتضح فيما بعد أنه مات غرقاً، وبدأت تسبح وحدها قرابة الساعتين، ووجدت في أثناء سباحتها قارباً مطاطياً بالقرب منها، فطلبت ممن في القارب المساعدة، واستجدتهم حتى أركبوها معهم بعد أن رفضوا في البداية؛ -لأن القارب به خروق، ويخشون أن يسهم ركوبها في غرق القارب-، ومع شروق الشمس بدؤوا يرون سمك القرش يمر بالقرب منهم، وكانوا يدعون الله أن يصرفه عنهم، وفي الصباح أيضاً ركب معهم شاب سعودي؛ ليصبح عددهم في القارب ستة، وكانوا ينزحون الماء



من القارب بين الفينة والأخرى، ليخرجوا الماء الذي يتسرب إلى القارب من الخروق التي فيه، وفي الساعة الحادية عشرة تقريباً مرت بالقرب منهم سفينة نقل بترول، وكان معظم طاقمها عجماء، فأقنذوهم، وانتشلت سفينة النفط هذه أيضاً امرأة أخرى وجدوها بجوار القارب حيث كانت متشبثة بحبل مربوط في القارب، وقد فارقت الحياة، وعندما انتشلتها السفينة، وجدوا أن القرش قد أكل أجزاء من جسمها.

وقد وصلتنا هذه المرأة (الزوجة السعودية) بعد أن فقدت زوجها غرقاً، ولم تفقد عباءتها التي غاصت بها في البحر، وسبحت بها، وركبت بها في القارب، ثم في سفينة البترول، حتى وصلت إلينا في مستشفى سفاجا، وهي لا تزال متمسكة بها، وهذا لا يستغرب من المرأة المسلمة المحافظة، حيث إن إحداهن تهتم بحجابها وسترها كما تهتم وتحافظ على حياتها، وهذا يحدث كثيراً أيضاً في الحوادث المرورية للسيارات؛ حيث إن المرأة تكون مصابة، وتنزف، وعندما يأتيها الإنقاذ تكون صرختها واستغاثتها من المسعفين أن يغطوها، ويستروها قبل أن يسفوها.

ويذكر أن جميع السعوديات الناجيات اللاتي رأيتهن بعد عملية الإنقاذ، كنَّ بعباءاتهن حيث لم يخلعنها من أجسادهن، حتى وهن في لجة البحر إلى أن نجين، فهي ما زالت على ظهورهن.



دفول مستشفی الفرقة

الفصل الثاني عشر



بقيت بجوار الطفلة (آلاء)، وأنا أقتطع المأ وحزناً على الطفلة التي كانت محاطة بعائلتها الكبيرة؛ لتجد نفسها فجأة وحيدة في سفينة، تجهل مصير أسرتها ومصيرها هي أيضاً.

وبدأت السلطات تصعد إلينا في السفينة، ولم تسمح لنا بمغادرة السفينة فور وصولها إلى الميناء، فقد صعد إلى سطحها عدد كبير من أفراد الأمن المصري، كانوا أنواعاً شتى، ينتمون لوحداث شتى، ورتب مختلفة، وبينهم من كانوا يرتدون أزياء مدنية، ولا يحملون رتباً عسكرية، ولكنك تستطيع بسهولة أن تعرف فارق الرتب بينهم من اللهجة التي يستخدمها الواحد منهم في مخاطبته لمن هم حوله، وأخذوا يحصون عدد الناجين، وبيانات هوياتهم، ويقومون بتصويرنا شخصاً شخصاً، ويعطون كل واحد منا ورقة تثبت أنه من غرقى عبّارة السلام ٩٨، وأن جوازه مفقود في هذه الحادثة، وكان من بين هؤلاء الموظفين شخص، كان يحمل أوراقاً مسجلاً بها عدد من الأسماء، فقلت له: إن كان بإمكانه أن يسدي إليّ معروفاً بمراجعته للأوراق التي بين يديه، ويبحث إن إمكن عن اسم (سعود مترك) في قائمة كشف الناجين؟

فألقي نظرة متعجلة مستعرضاً الأسماء بسرعة، وأجابني بالنفي.



وقال لي مجاملاً: «لا تقلق، فعمليات البحث جارية، وهناك كثير من الناجين، وإن شاء الله يكتب الله السلامة لأخيك، وينجو».

فقلت: سأصاحبكم عندما ننزل على اليابسة وألازمكم، وكانت الجهات المسؤولة قد وجهت من كانوا على سطح السفينة من أفراد الأمن بإنزال الركاب الناجين، ونقلهم بحافلات وسيارات إسعاف أحضرت خصيصاً لنقل الناجين إلى المستشفى.

كانت السفارة السعودية تجمع السعوديين مع بعضهم بعضاً، وتقسمهم في سيارات إسعاف، ولكنني عندما خرجت من السفينة؛ توقفت عن مواصلة السير؛ لكي أتأكد من نجاة (سعود)، ووقفت أبحث عن طريق غير الطريق الذي يؤدي إلى الحافلات، ولا أدري أي طريق أسلك، في حين كان بالقرب مني عشرات الكاميرات التي كانت أضواؤها وكشافاتها قوية جداً، وكان بجوار كل كاميرا صحفي يحاول أن يلتقط أي كلمة من الناجين الذين ينزلون من سفينة الإنقاذ، ولكنني حينها لم أكن في حال تسمح لي بأن أتحدث مع أحد، وكانت القوات هناك توجه الناجين أن لا أحد يتوقف ويتحدث مع القنوات؛ بل يواصل السير إلى سيارات الإسعاف أو إلى الحافلات، ما أثار وقوفي هنا حفيظة أحد الضباط المصريين الذي أشار بيده لشرطين يقفان غير بعيد منه إشارة فهمها كأمر، وانضم إليهما ثالث، إلى دفعي بالقوة لمواصلة السير، وإركابي الحافلة، ولم تكن لدي رغبة في إثارة المتاعب، فقادني العسكر إلى إحدى الحافلات، وتوجهنا لا أدري إلى أين.



الموقف خارج الميناء كان مختلفاً للغاية، فما إن عبرت السيارة بوابة الميناء، حتى تأكدت بأن المسألة في الخارج كبيرة جداً، وأن الحادثة أحدثت هزة هائلة، وصدى كبيراً، فقد احتشد المئات من الناس، عشرات المئات وفدوا من مختلف المحافظات المصرية، كانوا يحيطون بالسيارات الخارجة من البوابة، وهم يحاولون النظر لمن بداخلها؛ بحثاً عن ذويهم ومعارفهم، وبعض النسوة بجلابيبهن السوداء، كن يطلقن العويل والنواح، وكأن ذويهم قد ماتوا بالفعل، وكانت عدسات العشرات من الكاميرات تتوهج أضواء كشافاتها، مثل ومضات البرق المتتابعة تلتقط كل صغيرة وكبيرة من المشهد.

استغرقت رحلة الحافلة نحو ربع الساعة تقريباً حتى وصلنا إلى المستشفى -مستشفى الغردقة- الذي كانت تطوّقه أعداد كبيرة من قوات الأمن المركزي، وكانت تطبق أوامر صارمة بعدم السماح لدخول الناس الذين كانوا يتدافعون بلهفة عارمة لمعرفة مصير ذويهم، وما إذا كانوا ضمن الناجين الذين أحضروا للمستشفى.

كان الألم ينهشني، فقد كنت أعاني من تمزق في أوتار رسغي الأيمن، وعند دخولي المستشفى وقعت عيني على الأطفال الثلاثة الذين شهدوا مصرع والدهم أمام أعينهم؛ حيث فقدت أثرهم بعد نزولنا من السفينة، لذلك بقيت بالقرب منهم، أطمئنتهم وأؤكد لهم أنني سأظل إلى جانبهم إلى أن يصلوا إلى أهلهم سالمين، وكان معنا أربعة شباب سعوديين آخرين، كانوا أيضاً في قمة التعامل مع هؤلاء الأطفال.



وفيما بعد تم أخذي إلى غرفة في المستشفى، تشاركت فيها مع شاب مصري، وكان هذا الشاب مفاجأة بالنسبة لي؛ حيث كان الإمام الذي صلى بنا صلاة الاستغاثة على متن السفينة في بداية الحريق، وهو نفسه الذي أعطاني سترة النجاة عندما لم أعثر على سترة نجاة حينذاك.

وضعوني على السرير، ومن ثم جاء الطبيب وفحصني، ثم ضمدوا يدي، وأعطوني العلاج.

لم نلبث قليلاً حتى جاء إلينا وفد من موظفي السفارة السعودية بمصر، كان أحدهم، ويدعى إبراهيم الحميد، قد قدم لي فور مجيئه جواله؛ لأكلم أهلي وأطمئنهم، فشكرته. وقلت له: «إنني لا أريد أن أكلم أحداً».

لأنني، وحتى تلك اللحظة، لم يكن لدي ما يمكن أن أقوله لهم، ولم أكن أعرف حقيقةً ماذا أقول!

فقلت له: «إنني لن أتحدث إلى أهلي أو إلى أحد آخر، ما لم أعرف مصير أخي، وما الذي صار إليه».

فقال لي: «لم يصلنا حتى اللحظة أي خبر عنه، كما أن اسمه ليس من ضمن قائمة من نجوا وتم العثور عليهم، وهم على اتصال مع السلطات والأجهزة التي تباشر العمل من خلال غرفة عمليات عليا، ومؤكداً لي أنهم سيبادرون بإبلاغي فور العثور على أي خبر عن أخيك».



كنت أقف أمام زجاج نافذة الغرفة، وكانت الغرفة في الدور الثالث في مستشفى الغردقة، وكانت الساعة نحو السابعة صباحاً عندما طرق الباب طارق مستأذناً بالدخول، وقبل أن أرد عليه دخل الغرفة شاب مصري في منتصف العمر تقريباً، وقبل أن يعرف بنفسه قدم لي الجوال الذي يحمله، وهو يقول: «خذ عندك مكالمة». لم أسأله: المكالمة ممن؟ وإنما رددت عليه بشكل قاطع: «لا أريد أن أتحدث مع أحد».

فقال لي: «لماذا؟ أهلك لا بد أن يكونوا في قلق عليك، الخط مفتوح وهناك من ينتظر أن تكلمه، خذ الجوال وتحدث إليهم ليطمئنوا!». فأجبت به بأنني لن أتحدث مع أحد.

فقال لي، وهو يحاول ضبط أعصابه: «ولكن هذه مكالمة ضرورية». بعد تردد أخذت منه الجوال، وقلبي يخفق بعنف، وأنا أحاول أن أخمن من يكون في الطرف الآخر، فإذا بي أفاجأ بصوت (فالح) نسيب (سعود) وهو يهنئني بالسلامة على نجاتي، وقبل أن أسأله عن مصدر علمه هذا، لأنني لم أتحدث مع أحد، واصل حديثه: «لقد سمعنا بالخبر من القنوات الإخبارية ومنها عرفنا بأنك من الناجين»، وسألني إن كان هناك خبر عن (سعود)؟

فقلت له: إنني فقدت أثره في أثناء غرق العبارة، وإنني أواصل البحث عنه.



وطمأنته قائلاً: «وإن شاء الله هو من الناجين».

وسألني: «هل كان (سعود) يلبس سترة قبل الغرق؟».

قلت: «نعم»، ما أثار ارتياح فالح، وأنهيت المكالمة.

ولم أكد أهدأ قليلاً من هذا الاتصال، حتى تلقيت اتصالاً آخر على الجوال نفسه، وكأن رقم هذا الجوال قد انتشر بين الأصدقاء، وإذا بالمتصل شقيق (سعود) واسمه (جلوي)، الذي هنأني بالسلامة، وسألني السؤال نفسه: «هل كان (سعود) يلبس سترة قبل الغرق؟». ورددت عليه بإجابتي لفالح نفسها، ومن ثم اتصل بي أحد أصدقائي المقربين مني جداً، وهو (سياف)، وأيضاً عن طريق جوال هذا الأخ المصري الذي أظنه يعمل في المستشفى.

بعد ذلك طلبت من هذا الأخ راجياً ألا يسمح لأحد بمكالمتي، وكان أسلوب هذا الأخ المصري عجباً؛ حيث كان يفتح الجوال، ويضعه على المكبر الصوتي، الأمر الذي يجبرني على التحدث مع المتصل.

الشيء الذي أستطيع تأكيد، أن تلك الاتصالات كان لها تأثير إيجابي للغاية عليّ، فقد كانت بمثابة دعم نفسي جعلني أنظر للأمور بنظرة متفائلة، ولعلها أزاحت عن كاهلي شيئاً كبيراً من الهم.

ما دعمني نفسياً في ذلك اليوم، إلى جانب هذه المكالمات، هو



بقاء موظفين مصريين يعملان في سفارة المملكة العربية السعودية بالقاهرة: أحدهما كان يصحب ابنه معه، وهو شاب في السابعة عشرة من عمره تقريباً، وقد كان قمة في الهدوء والرزانة والأدب، ولفت نظري أن واحداً من هذين الموظفين كان يؤكد لي بثقة أن (سعوداً) من الناجين، وأنتي سوف أقابله، كان يؤكد هذا، وهو لا يعرف (سعوداً)، ولا يملك أي معلومات عنه، وكان يقول لي عبارات تعزيرية، منها:

«ما تخفش، حتشوف أخوك، وترجعوا لبلدكم سوى، صدقتي هو بخير، بس أنته طوّل بالك»، هذا الرجل الخمسيني، أستطيع أن أؤكد الآن أنه كان خير عون لي -بعد الله- في أزميتي تلك، وأنه أدى دوراً كبيراً في تهدئة قلقي ومخاوفي، وزرع التفاؤل والثقة في نفسي، في تلك الظروف الحرجة، فلقد كان لوجوده أثر مهدئ، ومطمئن لي، وقد لازماني منذ ساعات الفجر، وعندما ذهب عاد القلق ينتابني مرة أخرى.

وأنا بداخل الغرفة، بدأت أسمع استعدادات وأصوات سير وطابوراً عسكرياً، وكأن بجواري مدينة عسكرية، وما هي إلا لحظات حتى دخل علينا شخص ينبّهنا بأن الرئيس المصري المخلوع محمد حسني مبارك سيزوركم؛ ليسلم عليكم، وبالفعل، ما هي إلا دقائق حتى زارنا الرئيس، فتذكرت ذلك الحلم الذي ذكرته في بداية القصة، وكأن هذه الزيارة كان لها علاقة بذلك الحلم.



كنت أرى في عيني الرئيس المصري تأثره وتضرجه من الكارثة، التي هي من ضمن سلسلة من الورطات والإحراجات التي كان يوقعه فيها أعضاء حزبه المقربون، حيث إن مالك السفينة، والمشغل للموانئ، من أعضاء الحزب الوطني، ومن أعضاء مجلس الشعب، المعيّنين بأمر من رئيس الجمهورية، ثم ما لبث أن غادر الرئيس وعاد الإحباط واليأس يحرقانني من الداخل في محنتي تلك.

بعد ذلك دخلت علينا عجوز مصرية في الثمانينيات من عمرها تقريباً، وكأنها تبحث عن أحد ما، اتجهت نحوي مباشرة، وكأنها تعرفني معرفة سابقة ووثيقة، أظنها أشفقت عليّ، وتحركت عاطفة الأمومة فيها، لما رأت من جزعي وانتظاري لأي معلومة عن (سعود)، وعندما جلست بالقرب مني خجلت من الضعف الذي كنت أبدو عليه، فأدّرت وجهي للناحية الأخرى، ولكنها ناولتني كوب ماء، ولما رأت إعراضي وعزوفي عنه، أخذت تستحلفني بالله أن أشرب منه، ولورشفات من أجل خاطرها، وأخذت منها الماء، وأخذت أشرب، وهي تطبطب على ظهري، وتبعث الطمأنينة في نفسي بكلمات مشجعة، طالبة مني بكل طيبة أن أستعين بالله في هذه اللحظات، وأن الله سيفرج همّي، ويزيل كربتي، وأني سأجد أخي، وأن ليس غير الصبر الآن، فهو مفتاح الفرج، كانت تقول كل هذه العبارات بلهجتها المصرية الجميلة، لقد كان لمواساتها لي تأثير طيب على نفسي، وإلى الآن، أظنني لن أنسى هذا الوجه الأمل الطيب السمح

ما حييت، فقد أطلَّ في ليل محنتي تلك كإشراقة أضاءت لي ظلمة
تلك المحنة، ومنحتني شيئاً من التماسك والثقة.



البحث عن سعود

الفصل الثالث عشر



ساعات، وبدأت مؤشرات موت (سعود) ترتفع، وبدأ عدد الناجين يقل، وإلى تلك اللحظة لم أكلّم أهلي، ولم أستطع أن أبشرهم بنجاتي، وبفقدان (سعود)، وتدهورت حالتي النفسية، وكأنني بدأت أغرق من جديد، وكأن فرح النجاة من الفرق قد اختفى.

وفي الثانية والنصف ظهراً تقريباً، طلبت من أحد موظفي السفارة جوالاً؛ لأتحدث مع ابن العم (عبدالله المعاوي)، وكنت أريد أن أكلّفه بأن يطمئن أهلي، وأن يبلغ الجميع بأنني لن أتصل بأي شخص أو أي أحد إلى أن يتصل (سعود) بأهله ويطمئنهم، أما إذا لم يتصل ولم ينج، فحينها لكل حادث حديث، كنت أريد أن أبلغه هذا بمثابة إشعار لجميع أهلي ومعاريفي في الوطن، إلا أنه ما إن ردّ عليّ، وسلمت عليه، وقبل أن أبدأ بما نويت إبلاغه له، فاجأني وهو يحلف بأن (سعوداً) قد نجا - بفضل الله - وأنه اتصل بأخيه عامر قبل قليل، وأبلغهم بأنه موجود في سفاجا، ولم أشعر إلا وأنا ألقى بالجوال من يدي شاكراً ومكبراً بأعلى صوتي، وأهوي إلى الأرض ساجداً، باكياً، حامداً الله ومكبراً.

وأخذ موظفو السفارة الذين عاشوا معي تفاصيل الانتظار في



التكبير، وفي احتضاني ومباركتي بسلامة (سعود)، وخصوصاً الأخ المصري الخمسيني، الذي كان يؤكد لي منذ أن قابلني أن (سعوداً) سينجو.

أحسست حينها بأنني أسعد من في الأرض، وأحسست بأن قلبي يكاد يطير من صدري من الفرح، إنه الفرح... الفرح بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وفور تلقي الخبر هرولت خارجاً من الغرفة، أريد الذهاب إلى محافظة سفاجا لأقابل (سعوداً)، ولحسن الحظ وجدت سفير المملكة العربية السعودية في مصر، ومعه وفد من موظفي السفارة، يتفقد الناجين، ويسأل عن أحوالهم.

أخبرت أحد موظفي السفارة الذين يرافقونه بأنني أريد الذهاب إلى محافظة سفاجا، حيث إن أخي (سعوداً) نجا، وهو هناك، وكان هذا الموظف يحمل بيده ورقة فيها كشف بأسماء الناجين، أخذ يقرأ قائمته، وفاجأني بقوله: «إن (سعوداً) لم يأتنا اسمه بعد، وبذلك فهو لم ينجُ».

فأكدت له أنه من الناجين، فقال لي: «اسمه ليس بين قائمة الناجين، ويمكنك أن تتأكد من القائمة بنفسك».

فأفهمته بأنني لا أشكك في مصداقيته، ولكنني اتصلت قبل قليل على الأهل في السعودية، وأكدوا لي نجاته، وأنه اتصل عليهم وليس شخصاً آخر، وقال لهم: إنه في ميناء سفاجا، فكيف يتصل وهو

ميت؟



فرد عليّ الموظف بكل ثقة: إنه ليس في قائمة الناجين، ومن ثم فهو ليس ممن تم العثور عليهم أحياءً أو أمواتاً.

وصلت مع الموظف إلى طريق مسدود، وقد أدخلت عباراته في قلبي بعض الشك؛ لثقتي فيما يقول، ومن أسلوب كلامه.

فقلت له: «إذن، ساعدني... كيف أذهب إلى سفاجا؟ وبأي طريقة؟ (سفاجا تبعد نحو ثمانين كيلومتراً من محافظة الغردقة)، وهناك سأؤكد بنفسي، وأنا على يقين بأنني سأجده إن شاء الله، وسترون أنني صادق»، ولكنه رفض، موضحاً بأنهم يبذلون قصارى جهدهم للتأكد من الناجين السعوديين، وإذا كان هناك أي خبر عن (سعود)؛ فإنهم سيسارعون للاتصال بي، وإذا كان هناك أي شيء يمكنهم عمله؛ فإنهم لن يتوانوا عن عمله، وأن كل ما هو مطلوب مني الآن هو البقاء هادئاً في غرفتي، حتى يستطيعوا القيام بواجبهم.

لم يكن السفير بعيداً عن محاورتنا، فرجوته، وطلبت منه الطلب نفسه الذي قلته لموظف السفارة.

ولكنه ردّ بكلام الموظف نفسه، وكأن هذا يعني أن عدم سفري تقرر من السفير نفسه، أو بأمر منه.

غادر السفير موقعه، ليتفقد بقية الناجين بالمستشفى، ويتبعه موظفو السفارة، فلم أستطع البقاء في الغرفة، وحاولت أن أخرج



من المستشفى، ونزلت إلى الدور الأرضي، وإذا بالشرطة تقف عند أبواب المبنى، وعندما أردت الخروج منعوني، فأخذت ألح عليهم لكي يتركوني أخرج، وفي غفلة منهم تمكنت من الخروج من بينهم، وتركوني أذهب، وقد كانوا يستطيعون إرجاعي مرة أخرى للمستشفى، وعندما خرجت من مبنى التنويم إلى الفناء، وجدت هناك أيضاً طوقاً أمنياً في الفناء، فوقفت أمامه حائراً، ماذا أفعل؟ انتحيت ركناً قرب الباب، وجلست على الأرض محتاراً، وعند الثالثة والنصف تقريباً عصر السبت، خرج السفير وحاشيته.

فسألت أحدهم عن وجهتهم؟

فقال لي: إنهم متجهون إلى سفاجا؛ لمعينة أوضاع الناجين هناك.

فتوجهت بحديثي للسفير مباشرة، طالباً منه اصطحابي معهم.

ولكنه رفض، وتساءل عن وجودي هنا؟

فلم أتمالك نفسي عندها، فقلت غاضباً: إني رجل راشد عاقل ومسؤول عن تصرفاتي، ولست طفلاً ولا طائشاً، فلماذا التعامل معي بهذه الأبوية وهذه الفوقية؟!

ربما كان السفير لحظتها على حق في تحفظه على مرافقتي لهم، إذ يبدو أن ملابسي وهيئتي وبتأثير من المدة التي قضيتها في البحر ليومين أعطته انطباعاً سلبياً عني.



ولكنه في نهاية الحوار الذي بدا ساخناً من جانبي، وافق على مرافقتي لهم، موجهاً موظفيه باصطحابي معهم في السيارة التي تتبع سيارة السفير؛ حيث كانت معهم سيارتان.

ركبت مع أفراد السفارة، وانطلقت السيارة في الطريق من الغردقة متجهة إلى سفاجا.

كانت الأسئلة تتدفق شلالاً في عقلي، وكانت الهواجس تجوس في قلبي، ترى هل تحدث المعجزة، وينجو (سعود)؟ وهل سأقابلة ونعود معاً للوطن سالمين؟ أم أن كلام موظف السفارة صحيح وأنه لم ينجُ، وهل ستكون عودتنا آمنة إذا نجا؟ أم ستكون محفوفة بالمخاطر مثل الأولى؟ كنت أفيق من هذه الأسئلة، فألح على السائق أن يزيد من سرعة سيارته التي كانت تنطلق بسرعة ثمانين كيلومتراً، ولكنها كانت تسير بسرعة السلحفاة في نظري.

ولعل ما أثار كل هذه الهواجس والمخاوف والتساؤلات كان كلام موظف السفارة القاطع بعدم نجا (سعود)، أو ورود اسمه في قائمة الناجين، على الرغم من التأكيد الذي تلقيته هاتفياً من السعودية بنجاته، ولعل هذا ما جعلني في منطقة الشك حول مصيره.



سفاجا

الفصل الرابع عشر



وصلنا مستشفى محافظة سفاجة، وكما كان متوقعاً، فقد كان يعجّ بزحمة الناس الذين قضوا يومهم هرولة ما بين الميناءين في الغردقة وسفاجا؛ لمعرفة مصير ذويهم ومعارفهم.

دخلنا المستشفى بصعوبة، فالآلاف من الناس يحيطون بمستشفى سفاجا، وكانت قوات الأمن تضع حزاماً من رجالها حول سور المستشفى؛ حيث كان أهالي الضحايا والناجين يرمون بأنفسهم من على السور؛ لكي يدخلوا المستشفى ويعرفوا مصير ذويهم؛ بل إنك تسمع صيحات بين بعض من هم بداخل المستشفى عبر النوافذ مع من بخارجه؛ حيث كانت الصيحات وسيلة استعلام لأهالي الضحايا والناجين؛ يستجدون بها بمن بداخل المستشفى؛ ليتأكدوا من سلامة ذويهم.

ومما زاد هذا الضجيج صوت صفارات مركبات الإسعاف وسيارات الأمن، وهذا كله يجعل المشهد عظيماً، والحدث جليلاً.

كان قلبي يخفق بعنف، وأنا أجتاز بوابة المستشفى، ولو خُيرت لحظتها؛ فأظنني كنت سأختار ألا أدخل، وأتعرض لهذا الامتحان القاسي، فالحقيقة أحياناً جارحة، ويميل الإنسان إلى عدم مواجهتها؛ خوفاً من أن تكون على عكس ما يريد، نعم، كنت أتحرق



شوقاً لمعرفة مصير صاحبي، ولكنني كنت أخشى مواجهة الحقيقة، فكفّنا احتمالات مصيره أصبحنا متساويتين بسبب تأكيدات موظف السفارة القاطعة.

قد يستغرب البعض من جزعي المفرط على ابن العم ورفيق الرحلة (سعود) ولكن ذلك هو عصاره ما تشربته منذ صغري من الاعتناء بالصديق (الخوي) وأن النفس تُقدّم أحياناً رخيصة في الدفاع والتضحية عن الصديق، وهذا أيضاً من شيم العرب وخصوصاً أبناء البادية التي أنتمي إليها.

انفصلت عن وفد السفارة، وأخذت أركض؛ بحثاً عن (سعود) بين الناس الذين تشبثوا في المستشفى هنا وهناك، وكنت أدخل الغرف، واحدة تلو أخرى، وأسأل المرضى والمارة والممرضين عنه، وبين الركض والبحث وجدت نفسي أمام الوفد مرة أخرى، فسألني أحد موظفي السفارة ممن يرافقون السفير عما إذا كنت قد عثرت على أثر لـ (سعود)، فhezزت رأسي ناعياً، وأنا أجيبه بـ: «لا»، فقال لي: «لقد أخبرناك، ولكن لم تصدقنا، والآن عليك أن تهدأ وتلزم مكانك الذي تقف عليه هنا، ولا تغادره؛ كي لا نفقدك أنت الآخر، وإلا فإننا سنعاقبك!».

قال هذا، وكنا نقف على درج الطابق الثالث بالمستشفى، فجلست متهاكاً على أقرب درجة في السلم دون وعي مني، وقلت في نفسي: «قد تكون نجاة (سعود) شائعة راجت هناك في بيشة، حتى كادت

تصبح حقيقة، وإنني من شدة حاجتي إلى تصديقها قد أقنعت نفسي بأنها حقيقية، وصدقته مخادعاً نفسي».

أقبل عليّ الليل، وأنا في جلستي تلك على الدرج، رأسي على راحتي، وعقلي غارق في الحيرة، يتأرجح بين اليأس والرجاء، كلما أقبل فوج من الناجين بسيارات الإسعاف، أركض بحثاً بينهم عن (سعود)... فلا أجده، ثم أعود لمكاني يائساً، إلا أنني في حين كنت غارقاً في رأسي وإحباطي، لاحظت أن عدد سيارات الإسعاف بدأ يزداد كل لحظة، ما يعني أن قدوم الناجين بدأ يكثر شيئاً فشيئاً.

مرّ بي، وأنا أجلس على السلم شاب يظهر من شكله أنه سعودي، فاستوقفته، وسألته:

- «متى دخلت المستشفى؟».

- قال: «قبل قليل».

- قلت: «هل معكم شاب سعودي اسمه (سعود)؟».

- فقال: «أظن ذلك».

- فقلت: «كيف وصفه؟».

- فقال: «لا تلح علي، تجده هناك في الدور الأرضي في عيادة

الطوارئ، اذهب، وتأكد بنفسك».

شكرته، وركضت مهرولاً للدور الأرضي في المستشفى، وفي غرف

الطوارئ - الإسعاف - كان عدد الناجين كثيراً، فدخلت الغرفة

الأولى، وأخذت أقلب نظري بينهم واحداً واحداً، فلم أجد (سعوداً) بينهم، ودخلت الغرفة الثانية ولم أجده كذلك، وفي طريقي إلى باب الغرفة الثالثة ترددت في الدخول، كان قلبي يخفق بقوة، وكأنني مقبل لأطلّ على هوة المجهول، شيء ما كان يجعل خطواتي ثقيلة مترددة؛ خوفاً من صدمة عدم العثور على (سعود) في هذه الغرفة، وهي آخر غرفة في رواق غرف الطوارئ بالمستشفى التي تستقبل الناجين من العبّارة، فأخذت أختلس النظر إلى الغرفة بوجل وخوف من وراء الباب، وفجأة وقعت عيناى عليه، لم أصدقهما، ولم أصدق ما أراه، فاندفعت إليه، ولم يشعر إلا وقدماه تلوحان في السماء؛ حيث فاجأته وحملته، وعندما نظر ليتأكد من هذا الذي يحمله، وأطلق كلمة:

«أرحب...»، وهي كلمة نطقها في وجه الضيف، وفي وجه من نحب بصوت عال؛ تعبيراً عن مدى فرحنا برؤيته.

حينها أحسست بصدري يتشبع بالهواء، وكأني كنت مختنقاً داخل البحر، ولتوّخرجت، واستنشقت الهواء، حينها أيضاً نسيت كل ما تعرضت له في البحر، وكأنتي لم أغرق من الأساس.

لم أنتبه، كما لم يتنبه (سعود) إلى أن جميع من في الغرفة تركوا ما بأيديهم، وراحوا يحدقون بنا بتساؤل، وحين انتهت إليهم لاحظت أن عدداً من الناس كانوا يتزاحمون على باب الغرفة من الخارج، يحاولون التطلع إلى الداخل، ومشاهدة ما يحدث في



الغرفة، فقد كان جميع من في المستشفى شغوفين لمعرفة أي معلومة عن الحادث والناجين.

خرجنا من غرفة الطوارئ، وكل منا يطرح على الآخر سيلاً من الأسئلة، فكلّ منا كان يريد أن يحكي لصاحبه، ويسمعه يحكي، كنا متلهفين للكلام والاستماع في الوقت نفسه.

ذكر لي (سعود) قصة نجاته، وأنه وجد برميلاً طافياً، بعد أن سحبه أحدهم معه إلى البحر، عندما كان متعلقاً معي على سارية العبّارة، وظل متشبّثاً بالبرميل، ومعه خمسة آخرون إلى أن أتاهم قارب إنقاذ مطاطي خالٍ، لا يوجد به أحد، فركبوا فيه، وأركبوا معهم آخرين، وظلوا في قاربهم ذاك إلى أن مرّت بهم سفينة بضائع قرابة الساعة السابعة من مساء الجمعة، أخذتهم، واتجهت بهم إلى ميناء العقبة الأردني، والشيء المدهش والغريب حقاً الذي ذكره لي (سعود)، أن طاقم السفينة التي أنقذتهم لم يكونوا يعلمون شيئاً عن العبّارة الفارقة، وأنهم وجدوهم مصادفة، وهذا ما يجعل المرء يتساءل: لماذا لم تُبلّغ كل البواخر العابرة بالحادث؛ لتسارع الأقرب منها إلى موقع الحادث؛ لإنقاذ من يمكن إنقاذه؟!

بعد أن وصلت بهم السفينة إلى العقبة، طلبت منها القوات المصرية أن تسلم الناجين إلى ميناء سفاجا، فعادت السفينة التجارية بالمجموعة التي أنقذتها إلى ميناء سفاجا، وهذا ما جعل



اكتشاف نجاتهم يظهر متأخراً، كما أن الجهات الأمنية في الموانئ لا تعلن عن اسم ناج حتى تتسلمه، وتراه شخصياً.

ولكن (سعوداً) عندما اقترب من الميناء استخدم جوال أحد موظفي السفينة، واتصل على أخيه (عامر) وأخبرهم بنجاته، ما جعل خبر نجاة (سعود) تصلني من بيشة قبل أن تصل إلى موظفي سفارة المملكة التي لم تبلغهم الجهات الأمنية المصرية إلا بعد أن وصل (سعود) إلى ميناء سفاجا.

بعد أن وجدت (سعوداً) في مستشفى سفاجا، وصل أقاربنا من المملكة، حيث وصل (سياف بن سعود) و(عبدالله بن ناصر) ما زاد من شعورنا براحة كبيرة، وبدأنا نكلم الأهل في بيشة، ونطمئنهم علينا.

وفي الساعة العاشرة تقريباً، ونحن لا نزال في مستشفى سفاجا، أخبرنا أحد موظفي السفارة بأن صاحب السمو الملكي الأمير محمد ابن نايف مساعد وزير الداخلية يريد أن يتحدث إلينا بالجوال؛ للاطمئنان علينا جميعاً، وبالفعل تحدث سموه إلى كل واحد من الناجين عبر جهاز جوال موظف السفارة، وهنأنا بالسلامة، وأخذ يكلمنا واحداً تلو الآخر، وواسانا بكلمات أبوية، وخصوصاً للأطفال بيننا؛ حيث كان الجوال على المكبر، وكان مما يقول:

«أنتو عيالنا، وحنا أهلكم، ولا تقلقون من شيء، كل ما تبونه سيتم توفيره بأسرع وقت».



وشرح له أحدنا موقفنا، قائلاً له: إن الوضع هنا مأساوي، فهناك أطفال ونساء فقدوا ذويهم، وهم في حاجة إلى السكن والمأوى والمعيشة، وفي حاجة ماسة وعاجلة للعودة إلى الوطن بأسرع وقت ممكن، فكان ردّه لنا:

«أبشروا بالخير، سيتم توفير ما تطلبون وما تحتاجون إليه فوراً».

كان لهذا الاتصال أثر طيب علينا جميعاً، وأحسنا بأن هناك من يتابع أمرنا ويهتم بنا، وخصوصاً أن معظم الناجين خرجوا إلى الياينة، وليس معهم سوى ملابسهم التي يلبسونها، فالجوازات والحقائب والنقود كلها غرقت، ما جعل الناجين بلا هوية وبلا مسكن وبلا مال، ولا يستطيعون العودة إلى أهلهم، فكان لتدخل الأمير محمد الأثر الكبير في حل هذه العقبات سريعاً.

وبالفعل، فلم تكذ تنقضي ساعة، حتى تم نقل جميع السعوديين وذويهم ممن جاء من المملكة، إلى قرية سياحية في محافظة الغردقة، تم حجزها كلها لنا، ووضعت جميع مرافقها وكوادرها العاملة في خدمتنا، ومن ثم تم توفير ثلاث طائرات: إحداها طائرة ركاب خاصة، وطائرتا إخلاء طبي للمرضى والمصابين.

و عندما تم نقلنا إلى القرية السياحية، كان من الواضح أن الناجين قد تم حصرهم بشكل كامل وقاطع، إذ لم يظهر ناجون جدد بعدها؛ حيث كان عدد السعوديين الذين على متن العبارة تسعة وتسعين شخصاً، نجا منهم فقط أربعة وأربعون ناجياً.



وتم إسكان جميع السعوديين الناجين على الشواطئ المصرية في القرية السياحية السكنية التي وفرتها لنا المملكة في محافظة الغردقة، كما أن السفارة أيضاً أسكنت معنا من جاء من السعودية للاطمئنان على أهله وقرباته، حتى أصبحت هذه القرية بمثابة حارة سعودية، وكأنا جميعاً أهل وأقارب.

كنا نتبادل الأحزان، ونتشاطر الهموم، بتعاطف إنساني خالص، وبإحساس الانتماء الفعلي، ونواسي بعضنا بعضاً.

● اختلفت المآسي وقصص النجاة والفرق، فقد وجدت شاباً قَدَّ اثني عشر شخصاً من عائلته، وطفلة فقدت جميع أهلها الذين ماتوا غرقاً، كنا نحاول أن نخفف من معاناتهم، ونقدم الدعم المعنوي والنفسي، خاصة للأطفال، وقد تأثرت بقصة لأحد الشباب السعوديين، الذي قال: إنهم كانوا في إحدى الغرف الخاصة في الباخرة، هو ووالداه وأخته، وعندما مالت الباخرة على جانبها الأيسر في طريقها للفرق، أصبح باب الغرفة في الأعلى، ولا يستطيعون الخروج إلا بمساعدة؛ بحيث يصعدون على ظهر أحدهم، يقول لي: «عملت أنا وأبي جاهدين لإخراج أمي وأختي، وبالفعل أخرجناهن، ولم يبقَ غيري أنا ووالدي، وحانت لحظة حاسمة بأن يخرج أحداً ويضحي الآخر بنفسه، فقلت لأبي: «اخرج، ودعني أساعدك على الخروج».

ولكنه حسم الموقف بإصراره على خروجي، قائلاً لي:



«اخرج أنت، ودعني أساعدك على الخروج، وانتبه على أمك وأخواتك».

وعندما صعدنا إلى السطح، وقفزنا إلى الماء؛ فإذا بأمي تفارق الحياة، ليس غرقاً ولكن ربما هلعاً وبتأثير الصدمة، ومن ثم وجدنا قارباً مطاطياً، فركبنا فيه (القارب الذي ركب فيه سعود)، كان يروي لي قصته، وهو يكاد يجهش بالبكاء.

● وآخر كان حظه أسعد حالاً، إذ تعلق بعمود خشبي كان يطفو على سطح البحر، فظل متعلقاً به إلى أن تم إنقاذه، وأما الطفلة (آلاء) التي كانت بمفردها في سفينة الإنقاذ التي كنت فيها، فقد وجدت والدها، وبعضاً من أسرتها الذين نجوا على ساحل مصر؛ حيث إن بعضهم نجوا على سواحل أخرى، وكان والدها رجلاً فاضلاً، ولا نزكيه على الله، كما وجدت (حمود الشامان)، وهو داعية فاضل، وقد نجا بعد أن غرق القارب المطاطي الذي كان يحملهم، وبقي مُتَمَدِّداً على ظهره في البحر؛ حتى جاءت سفينة وانتشلت، حيث نجا بفضل الله، ولم يفقد سواكه ولا جواله طوال رحلة الفرق، وقد أصبحنا أصدقاء، منذ ذلك اليوم في القرية السياحية التي غصت بالعديد من الصور والحكايات والمشاهد المؤثرة.

وهناك قصص مختلفة للناجين من هذه الكارثة^(١)، وهذه بعض منها:

(١) بعض قصص الناجين أوردتها موقع إسلام أون لاين.



● يروي صالح أحد المصريين الذين يعملون في المملكة قصة نجاته، فيقول:

«تشبثت، ومعني ثمانية أفراد، ببرميل النجاة طيلة نحو ست عشرة ساعة في عرض البحر، وتوالى سقوط من معي واحداً تلو الآخر، بفعل برودة الجو، والأمواج المتلاطمة، إلى أن أصبحنا أربعة... وكلما وهنت قواي، وشممت رائحة الموت، تحديته لرؤية ولدي الذي بشرتني زوجتي في مصر بقدومه؛ إلى أن غمرني الله بفضله ونجاني، إنها نعمة كبرى من المولى، وسأظل أحمده عليها إلى أن ألقاه».

● وفي الوقت الذي نجا فيه صالح بحياته، فَقَدَتِ هبة (٥٠ عاماً)، ابنها الذي لم يتعدَّ عمره خمسة عشر عاماً في مشهد آخر جرت وقائعه بين الأمواج، وتروي قصتها، فتقول: «عشت في السعودية ما يقرب من عشرين عاماً، وسافرت ومعني ابني إلى القاهرة على متن عبّارة الموت لقضاء الإجازة والعودة».

وتابعت باكية: «بعد أن شبَّ الحريق في محركات العبّارة، طمأننا طاقم العبّارة، وقالوا لنا: لا تقلقوا سنخدمه. وعندما ساءت الأمور بشدة أخذ الطاقم قوارب الإنقاذ، وتركونا على السفينة».

وأضافت: «اضطرت أنا وابني إلى القفز في عرض البحر، وأنا لا أجد السباحة تماماً، وتعلقنا بلوح خشبي، وظللت متشبثة بيد



ابني، ودعوته للصمود ولذكر الله، غير أن قوة دفع الأمواج كانت أقوى منه، وأبعدته بعيداً عني إلى مكان الله وحده أعلم به. عزائي الوحيد أن آخر كلمة سمعته ينطق بها هي: يا ربّ».

● أما إسرار (١٨ عاماً)، فقد عبّرت في حديثها عن مشاعر امتزج فيها الفرح والحزن، وتروي قصتها قائلة:

«بعد استحالة البقاء في العبّارة، لم أجد أمامي سوى القفز في البحر، والتعلق بلوح خشبي طيلة أربع عشرة ساعة، من الساعة الثالثة ليل الخميس، حتى الساعة الخامسة عصر الجمعة».

ومضت تقول: «بعدها لم أستطع المقاومة أكثر، أو التشبث باللوح الخشبي، وشعرت بأن جسدي تجمّد تماماً، إلا من حركة اللسان الذي لهج بذكر الله ومناجاته... عندها لاح الأمل من حيث لا أدري».

«وجدت بجانبني قارباً مطاطياً عليه مجموعة رجال، فجذبوني إليه، بعدها ظهرت لنا في الأفق طائفة، ظننا فيها النجاة والأمل، لكن سرعان ما تلاشى الأمل، وابتعدت الطائفة عنا».

وبلهجة غاضبة تقول: «الغريب أن سفن الإنقاذ عادت إلينا بعد خمس ساعات كاملة من ظهور هذه الطائفة، فبقيت خمساً وعشرين ساعة يحيط بي الموت من كل جانب، وبرغم ذلك لم أياس من رحمة الله، فوجدت نفسي أتمتم بلا توقف تقريباً: يا رحيم، ارحمني برحمتك».



● ياسر (٣٠ عاماً) قائلاً: «الحمد لله على الحياة، كما كنا سنحمده لو قابلنا وجهه الكريم».

وحول قصة نجاته قال: «في الحادية عشرة مساء الخميس لم يبق أمامي للنجاة إلا القفز من العبارة، بعد أن أيقنا جميعاً أنها تحترق تماماً، فقفزت إلى مياه البحر، وتشبثت بقارب مطاطي، وقفز عليه ما يقرب من خمسة وعشرين فرداً، وظللنا فيه مدة أربع ساعات تقريباً، لكن مع الحمولة الزائدة على المركب، ومع الأمواج انقلب القارب في المياه، وفارق الحياة أمامي عشرة أشخاص».

واستطرد قائلاً: «لم أجد أمامي سوى لوح خشبي أمسكت به، وكان ذلك تقريباً في منتصف الليل، وظللت معلقاً بلوح الخشب إلى أن شاهدت من بعيد سفينة إنقاذ، علمت فيما بعد أنها هندية، فشرعت أسبح باتجاهها، ساعدني على ذلك إجادتي للسباحة، وقوتي البدنية، وقبلها وبعدها عناية الله وحده».

● وفاء (٢٢ عاماً) تقول: «ظللت متعلقة بالسفينة، وهي تغوص في المياه، حتى أصبحت ممسكة بآخر جزء يظهر منها، لحظتها جرفتني الأمواج، وأنا لا أعرف السباحة، فنطقت بالشهادتين، ووجدت حولي عشرات الناس يرددون: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فرددت معهم، وأنا موقنة أننا في اللحظات الأخيرة من الحياة، وفي هذه اللحظة لمست يدي لوحاً خشبياً من حطام السفينة، فتعلقت به، وظللت أصارع الموت».



وتابعت: «بقيت أخطب بين الجثث الطافية، بينما أسمع من حين لآخر نداءات استغاثة، من ركاب يرددون الشهادة، ثم يختفون في أعماق البحر، ولم أشعر بشيء بعد ذلك سوى بعد وصولي لمستشفى الغردقة... لا أصدق أنني مازلت على قيد الحياة، لكن حياتي لن يكون لها قيمة قبل أن أعرف مصير والدي وأشقائي».



العودة للأهل والوطن

الفصل الخامس عشر



بقينا في هذه القرية يومين ونصف اليوم، ومن ثم أعدت السفارة حافلات اتجهت بنا إلى مطار الغردقة مباشرة صباح يوم الثلاثاء، ومنه مباشرة على طائرة خاصة إلى أرض الوطن، وكانت الرحلة سهلة، فلم نشعر فيها إلا بالشوق والحنين إلى أرض الوطن، وعندما حطت الطائرة في مطار الملك عبدالعزيز بجدة، وجدنا استقبالاً رسمياً حاشداً أعدّه لنا رجال وزارة الداخلية، ووجدنا برنامجاً أعدوه أيضاً لنا من سكن وغذاء وتقلات وتذاكر مجهزة لتأمين وصول كل فرد من القادمين إلى محافظته ومنزله، كانوا يملؤون ممرات المطار بهمة وحيوية، ويقدمون خدماتهم للجميع، كما وفروا الرعاية الطبية اللازمة لمن يريد أن يجري فحصاً طبياً أو من يريد أن يتلقى العلاج، الأمر الذي جعلنا نشعر بالأمان والاطمئنان في حضن الوطن، ذلك الشعور بالراحة والدفع الذي يثير في الإنسان السعادة.

كما وجدنا عدداً من الأقارب والأصدقاء ينتظروننا في مطار جدة، الذين كانوا يستقبلوننا بالأحضان ودموع الفرح.

من المطار تحركنا إلى شقة الرحاب بجدة، وكان رجال الداخلية قد وفروا حجزاً مؤكداً لليوم اللاحق للسفر إلى مسقط الرأس



بيشة، ولما كان الأهل والعشيرة في بيشة يعيشون القلق الأكبر علينا؛ لذا كان يتحتم علينا أن نسارع في العودة إلى (الديرة)، فبرغم تيقنهم من نجاتنا، وسلامة وصولنا إلى الوطن، حيث كانوا يتابعون أخبارنا خطوة بخطوة، إلا أنهم كانوا في شوق لأن يرونا بينهم؛ حتى تطمئن قلوبهم.

فشدنا الرحال إلى بيشة، وما إن وصلنا مطار بيشة حتى وجدنا استقبالا حافلا من قبل الأهل والأصدقاء، وتحولت منازلنا إلى سرادق فرح كبير؛ حيث استقبلنا الأهل والأقارب والأصدقاء بحفاوة بالغة، وفرح كبير بعودتنا، وأقامت أسرتنا حفلين، على مدار يومين متتالين، ابتهاجا وفرحة بنجاتنا، وسلامة العودة إلى الديار، وفي هذين اليومين لبست قريتنا ثياب العيد، وتعطرت وتزينت، وهذه هي حلاوة مذاق الانتماء، وهو أن يشعر الإنسان بأنه محل إعزاز وتكريم من أهله وولادة أمره، وأن هناك من يفرحون لفرحه، ويبتسسون لكربه، وأن يشعر بأنه ورقة تنتمي إلى شجرة كبيرة، وقطرة في محيط كبير، وأنه جزء من كل.

انتهى -ولم يكد- برنامج الأهل الاحتفالي، حتى دعانا لزيارته نائب أمير منطقة عسير حينها، صاحب السمو الملكي الأمير فيصل ابن خالد بن عبد العزيز آل سعود، -الذي هو الآن أميرها-، حيث استقبلنا سموه بحفاوة وتكريم، وأخذ يسألنا عن أحوالنا بعد أن هنأنا بالنجاة وسلامة العودة، وحينها سألتني سموه أن أطلب ما

أشياء، فأجبت به بأنني أرغب في تغيير مكان وظيفتي، وكان تحقيق هذا الطلب من أكبر الأمانني عندي، وكنت أسعى لتحقيقه حثيثاً قبل غرقي في البحر، وها هو الآن يتحقق بسهولة، ولله الحمد والشكر، ولله الفضل، ثم بوقوف الأمير فيصل معي.

كما دعانا لزيارته سعادة محافظ محافظتنا بيشة، الأستاذ (محمد سعود المتحمي)، واستقبلنا أيضاً بحفاوة وتكريم، ولما كان الحدث قد تصدر الأخبار العالمية وقتها، لما بدأ يطفو على السطح من تساؤلات، وما يفوح من رائحة الفساد والإهمال، فقد قامت بعض القنوات الإخبارية بإجراء العديد من اللقاءات معنا، وسألوني عن تفاصيل تجربتي، بوصفي شاهد عيان معاشاً للتجربة التي مات فيها ١٠٧٠ نفساً، ونجا منها ٤١٤ ناجياً.



موقف نيل للأمير محمد بن نايف

الفصل السادس عشر



في هذه الكارثة رجل له فضل - بعد الله - علي وعلى جميع الناجين السعوديين، وهو صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن نايف بن عبدالعزيز آل سعود مساعد وزير الداخلية للشؤون الأمنية، الذي كان له في هذه الكارثة مع السعوديين وقفة سيبقى صداها في قلوبنا ما حيينا.

يروى لي شخصياً أحد الضباط (لواء في وزارة الداخلية)، أن سموه قد كلفهم بتشكيل فريق عمل، تم وضع جميع الإمكانيات تحت تصرفه، وتم تخصيص خط مباشر بين سموه وبين غرفة العمليات الخاصة بالتعامل مع الأزمة، وبوضع خط ساخن لمن أراد الاستفسار عن ذويه، ولمن له أقارب في العبارة، كما أن سموه، عبر الخط المباشر، كان يتابع تطورات الأحداث بنفسه لحظة بلحظة، منذ أن غرقت العبارة.

يقول اللواء: «بل إنه كلفنا بأن نتابع تجهيز طائرتي الإخلاء الطبي، وطائرة خاصة بالركاب، لنقل السعوديين إلى المملكة، وعندما أحس بأننا سنتأخر أعفانا من هذه المهمة، وقام بها بنفسه؛ خشية أن نتأخر، وكان لا يقول: (السعوديين) أو (الفرقي) أو (الناجين)؛ بل كان يقول دائماً: (عيالنا)».



وبالفعل فقد وجدنا من حرصه ما يجعل هذه الكلمة قولاً وفعلاً.
ويتابع اللواء قائلاً: «وكان حين يتأخر الوقت يخبرنا بأنه سيسريح قليلاً، على أن يتم الاتصال به على جواله الخاص في حال حدوث أي تطور جديد... وهكذا، وكنت لا أود الاتصال على جواله الخاص؛ خشية أن يكون نائماً، وخصوصاً عند ساعات الفجر الأولى»، يقول اللواء: «وعند الساعة الثالثة فجراً تقريباً، أرسلت له رسالة على الجوال، وما إن وصلت الرسالة إلى جوال الأمير، حتى سارع سموه بالاتصال بنا من فوره، حيث كان سموه حريصاً على متابعة الأحداث، والإجراءات بنفسه لحظة بلحظة».

يقول لي اللواء أيضاً: «كنا نرجوه أن يرتاح قليلاً من هذا الجهد المتواصل»، فكان يجيبهم: لن أرتاح حتى يعود كل سعودي إلى أهله، هنا في وطنه.

وظل سموه على هذه الحال من المتابعة حتى وصل السعوديون إلى المملكة». انتهى كلام اللواء.

وبالفعل عدنا جميعاً ولله الحمد والمنة إلى أحضان أسرنا، وتواصل معنا رجال الداخلية، حتى اتصلوا بنا في منازلنا بين أهالينا.

فجزى الله الأمير محمد بن نايف عنا خير الجزاء، وسنبقى أسرى لهذه الوقفة النبيلة، التي لا تستغرب من رجل عمّت أفضاله



عامّة أبناء الوطن، فتاريخ الأمير في رعاية أبناء الوطن مشهود
ومعروف، يدركه القاصي قبل الداني.

كما يشهد على ذلك عمق إنسانيته رعايته للأيتام وأبناء شهداء
الوطن، ويشهد بذلك أيضاً تنقله في أرجاء الوطن سافراً؛ ليواسي
المئات من الأسر على فقدان أربابها أو أولادها، فتكاد تراه بينهم،
وكأنه واحد من هذه الأسر، المشهد الذي اعتدنا، ولم يعد ذلك
مستغرباً على سمو الأمير محمد، الأمير الإنسان. نسأل الله أن
يطيل عمره، وأن يحفظه لنا، وأن يوفقه لما يحب، ويرضى.



من المسؤول عن الكارثة؟!

الفصل السابع عشر



لعل الإهمال بعد قضاء الله من قبل شركة السلام للملاحة، له سبب كبير في موت كثير من الضحايا غرقاً، وذلك لعدم إرسالها سفن إنقاذ سريعاً إلى عبارة السلام، منذ اشتعال الحريق فيها، كما أنها عندما أرسلت سفن الإنقاذ لم تصل أولاهها إلا بعد مرور اثنتين وعشرين ساعة من اشتعال الحريق، ما ساعد على زيادة الخسائر البشرية، كما أن رفض القبطان العودة إلى ميناء ضباء منذ اشتعال الحريق أسهم في هذا أيضاً؛ بل إنه أصر واستمر في الماضي قدماً تجاه سفاجا، ولو أنه اتخذ قرار الرجعة لكانت مدة الساعات الخمسة التي قضتها السفينة سائرة، وهي تحرق كافية لعودة السفينة إلى محافظة ضباء وركابها سالمين.

ومن دلائل الإهمال والتواطؤ أيضاً: أن أول إنذار للغرق أتى من الموانئ الفرنسية صباح الجمعة، ولم يسبق ذلك أي بلاغ من قبل شركة السلام للملاحة، لا من السفينة قبل غرقها، ولا من ميناء سفاجا التي تشغله شركة السفينة نفسها، شركة السلام للملاحة.

كما أن هناك سؤالاً: لماذا رفض القبطان العودة إلى ضباء، واستمر في الإبحار بسفينة تحترق؟!



ألم يكن هناك اتصال بين القبطان وأصحاب الشركة في القاهرة، وغرفة مراقبة الملاحة في الموانئ؟

كما أن عدم إنزال القوارب الخشبية، وبقاءها مربوطة بالسلاسل، وعدم أمر القبطان للملاحين بتوزيع السترات التي أخذها الركاب عنوة، وهروب القبطان في قارب صغير قبل غرق السفينة - حسب بعض شهود العيان - واختفاء القبطان بعد حادثة الغرق، وتسجيل اسمه ضمن المفقودين، وهروب مالك الشركة إلى بريطانيا، وبقاءه وعدم عودته إلى مصر، كلها مؤشرات ودلائل على وجود تواطؤ، ووجود أسرار وألغاز خلف غرق العبارة السلام ٩٨.

وهناك سؤال من وجه آخر: أين قواعد الأمن والسلامة والاستعداد للحرائق والتفتيش على هذه السفن عند إعطائها تصريحاً بمزاولة الأعمال الخاصة بتحميل الركاب؟

ولعلها الآن تعاد محاكمة المتورطين في هذه الكارثة، التي يظهر فيها الافتعال من أجل الحصول على تعويضات تأمين السفينة، التي أكد عدد من القنوات الفضائية أنها سفينة نقل مواشٍ، وأنها تالفة مشتتة من البرازيل، وأن هذه السفينة جاءت إلى مصر لـ (التكهين)، وتحويلها إلى (سكراب) خردة، وليس للعمل مرة أخرى.

كما أن مالك العبارة ممدوح إسماعيل تم تهريبه بعد كارثة



العبارة على الرغم من صدور قرار بمنعه من السفر ما يضع علامات استفهام حول الجهات التي لها مصلحة في إخفاء الحقيقة. كما أن كل الروايات التي وردت وقت غرق العبارة، شهادات دامغة عن الاستهتار، إضافة إلى الطرق البدائية التي تمت فيها عمليات الإنقاذ والإسعاف والتعامل الإعلامي مع القضية وتوصيل المعلومة إلى أسر الضحايا، تدل على التواطؤ أو الاستهتار بأرواح الناس على الأرجح.

ويشير تقرير وثيقة ويكيليكس التي تحمل رقم ٦ كايرو ٢٢٩٥٨ بتاريخ ٢٨ فبراير الساعة ٣، ٢٨ دقيقة، ونشرت في ١٦ يونيو ٢٠١١، تحمل شعار سري للغاية ومعنونة باسم: «مأساة السلام بوتشاتشيو البحرية».

وجاء في الوثيقة: كانت مأساة حقيقية حاول نظام مبارك، بل مبارك نفسه إخفاءها ووأد الحقائق فيها، مشيرة إلى أن السفير الأمريكي بالقاهرة فرانسيس ريتشاردوني كان شاهداً على اللقاء السري الذي جرى بين (هيوارد بيرمان) الممثل الرسمي للرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش الابن وعضو الكونجرس المؤثر وبين الرئيس المصري المخلوع حسني مبارك.

الزيارة طبقاً للبروتوكول الدبلوماسي يحرص أي سفير على تدوين ما يجري فيها، ولم تكن تلك الزيارة بالشيء الشاذ من حيث تسجيلها، ولم يعرف أحد من أطراف الجلسة أنها يمكن في يوم من الأيام أن تخرج للنور.



وتبدأ الجلسة في وثيقة ويكيليكس التي فضحتها ببند واحد (ملخص) وفيها يبدأ ريتشاردوني في تسجيل البيانات، فيقول: «في هذه الجلسة المطولة التي حضرها عن الجانب الأمريكي (هيوارد بيرمان) في ٢٠ فبراير ٢٠٠٦ شدد الرئيس مبارك على رفضه أن مصر مسؤولة عن حادثة العبارة السلام التي غرقت في ٢ فبراير ٢٠٠٦ بالبحر الأحمر خلال رحلة روتينية لها من ميناء ضباء السعودي إلى ميناء سفاجا المصري جنوب مصر».

ملحوظة أخرى سجلها قلم ريتشاردوني، ويشير إلى أن جهود الإنقاذ قد أعلن عن توقفها بشكل رسمي في ١٠ فبراير ٢٠٠٦ وقد تم إنقاذ ٣٨٨ شخصاً مع هذا التاريخ، وتم انتشال ٤٠٠ جثة من البحر، أما الـ ٦٠٠ جثة الباقية فقد أعلن أنها حالات مفقودة في البحر.

ثم كتب ريتشاردوني يسجل بقوله: «خلال الجلسة أخبر هيوارد بيرمان مبارك (سراً) أن المخابرات الأمريكية المركزية الد(سي أي إيه) ومعها وزارة الدفاع البريطانية قد حصلوا على أدلة اتهام مؤكدة في قضية العبارة، ويشرح هيوارد مبارك أن تلك الأدلة عبارة عن اتصالات صوتية وإشارات استغاثة صدرت من العبارة قبل غرقها والتقطتها محطة التنصت التابعة ل سلاح الجو الملكي البريطاني في مدينة كينلوث في أسكتلندا».

ويستمر هيوارد في الشرح لمبارك سراً كما كتبوا: «في التسجيلات



يسمع مالك العبارة السلام ممدوح إسماعيل يتحدث، ثم تسجل له مكالمات أخرى مع صفوت الشريف الأمين العام للحزب الوطني وذكريا عزمي رئيس ديوان رئيس الجمهورية ومع جمال مبارك نفسه».

يتوقف ريتشاردوني قليلاً، وهو يسجل بروتوكول الجلسة، ويكتب: «في خلال اللقاء حذر هيوارد مبارك من عواقب الغضب الشعبي العميق والحزن الشديد الذي انتاب الشعب المصري كله إذا تمكن أحد من الكشف عن تلك التسجيلات والاتصالات والملكية المشتركة للعبارة بالتساوي بين الأربعة، كما وصفهم وكان يقصد بالقطع ممدوح إسماعيل، وصفوت الشريف، وذكريا عزمي، وجمال مبارك».

ثم يكتب ريتشاردوني مسجلاً الجلسة السرية، ويشير للمحظة تفيد بأن الإفادة الرسمية التي أدلى بها وزير الدفاع البريطاني تثبت أن محطة القوات الجوية الملكية البريطانية في كينلوت بأسكوتلندا قد رصدت كل شيء، بداية من الاتصال الخافت على تردد الطوارئ للعبارة السلام، بداية من الساعة ١:٥٨ بتوقيت لندن، وكذلك رصدتهم عدد ٥ مكالمات لاسلكية جرت بين الشركاء من تليفون ممدوح إسماعيل صدرت لكل من صفوت الشريف وذكريا عزمي وجمال مبارك، وهي الاتصالات والمعلومات المسجلة التي حللتها القاعدة الجوية البريطانية، ووجدت أنه من الضروري

نقلها للقاهرة، كي يتصرفوا، خاصة أن مالكي العبارة صمتوا عن التصرف، وتركوا العبارة تغرق بمن عليها، دون إخراج قوارب الإنقاذ فوراً من السواحل المصرية القريبة.

يكتب ريتشاردوني في نهاية الفقرة أن (مباركاً) لم يعجبه الحديث عن المأساة، فقرر هيوارد الانتقال للنقاط اللاحقة في النقاش، ومن ثم نجد المستند يكمل في أمور سياسية شتى بين البلدين مصر والولايات المتحدة الأمريكية.





الخاتمة

قضية غرق عبارة السلام ٩٨ وما أثير حولها لا تزال في أروقة المحاكم، فبعد أن أقفلت جبرياً في عهد الرئيس المصري المخلوع حسني مبارك، عادت الآن المحاكمة بشكل جدي بعد سقوط الرئيس المخلوع.

ولكن يبقى هناك ضحايا ماتوا، ولن تفيدهم نتيجة التحقيقات، ومعاقبة المتورطين في هذه الكارثة، فهم غادروا الحياة غرقاً، نسأل الله أن يكتبهم في الشهداء عنده، إنه العفو الكريم، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٤].

قال ﷺ: «القتيل في سبيل الله شهيد، والمبطون شهيد، والمطعون شهيد، والغريق شهيد، والنفساء شهيدة» صححه الألباني.

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره

تعددت الأسباب والموت واحد

هذا خير ما يمكن أن نقول لمن مات له قريب أو عزيز في كارثة السلام ٩٨، وإننا نتقدم لذويهم بالعزاء، وندعو الله أن يقبلهم في الشهداء عنده، وأن يجعل ما حدث لهم كفارة لهم، وعظة لغيرهم.



ونسأل الله تعالى أن يتولى أهالي الضحايا وأبناءهم، وأن يعينهم على الصبر على الأحزان، وعلى الألم الذي تسبب فيه هذا الحادث الأليم، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.
أخيراً:

حاولت في هذه القصة أن أسرد كل ما مررت به في هذه الكارثة؛ لتكون قصة واقعية حقيقية، تجعل من يقرأها يشعر كأنه كان معي في رحلة عبّارة السلام ٩٨، ولكن دون غرق ودون أن تتبلل ملابسه بمياه البحر على الأقل.

هذا، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



محرم "عكاظ" بين ٢٦ ناجيا سعودياً و٨٠٠ مفقود تحت الماء



أمين سمير (سفاجا) عطا الله المرواني (تيوك) وأبو (الرياض)



عدد من الناجين الذين وصلوا ميناء سفاجا أمس وفي الأظفار الزميل آل مشوط

عزا خادم الحرمين الشريفين وسمو ولي العهد الرئيس المصري حسني مبارك في وفاة ركاب السفينة «السلام» ٩٨، التي غرقت في البحر الأحمر أمس الأول. ووجه الملك بالتنسيق مع الأشقاء في مصر حيال عمليات البحث والإنقاذ، حيث توجهت إلى موقع الحادث فرقاطتان وسفينة إمداد من القوات البحرية الملكية، وكشف سعوديون من الناجين ٢٦ من الكارثة وبينهم محرم «عكاظ» الزميل محمد آل مشوط أن قبطان العبارة المصرية رفض العودة إلى ميناء ضياء أو إنزال قوارب النجاة زاعماً أن الحريق بسيط وستتم السيطرة عليه. وذكرت مصادر مصرية أن الآمال تتضاءل بشأن العثور على نحو ٨٠٠ مفقود. (الفاصل ص ٦-٤)

تعثر السفر جواً قاد الزميل آل مشوط للعبارة المشؤومة

سعيد آل منصور (جدة)

الداخلية السعودية للاستفسار عن ضحايا هذه الكارثة وكانت الأرقام «٩٩١» ورقم آخر «٠١٤٠٨٢٥٥٨» وقمت بالاتصال بالأخ عبدالله لأبلاغه بذلك وكان على الجانب الآخر زميلنا عبدالله عبيان يستفسر ويحاول الاتصال بمن استطاع وهو من أكد لي المعلومة الحقيقية إن محمد علي متن العبارة عن طريق الزميل عطا الله المرواني من تيوك. وبينما أنا أتأمل بعض المواقع وصلتني رسالة جوال من زميلي عبدالله آل قمشة تقول «بشرى محمد آل مشوط نجا ياذن الله، خبر عن القناة المصرية وانتظر بحول الله خبر نجاة سعود قول أمين» وأصبحت ادعو لهم وللجميع بالنجاة وأرسلت له رسالة لأنني لم أجد استطاع الحديث معه فالوقت متأخر وقلت له «الله يبشر بالخير ويبسط وجهك»، وكان ذلك الساعة الخامسة فجراً و ٤:٤ دقيقة وفي صباح يوم أمس السبت تحدثت للزميل عبدالله آل قمشة الذي أكد أن محمد بخير وبصحة طيبة وقد اتصل علي أحد أقاربه وقد سافر معه للقاهرة للوقوف على صحته وعندما سأله عن صديقه «سعود» قال هناك أنباء تقول إنه نجا ونحن ندعو الله أن يكون ضمن الناجين من هذه الكارثة.



الزميل آل مشوط

مكتب «عكاظ» ببشة وكان صوته على غير عابته تخفته عبرة قائلاً هل لديك أخبار عن زميلنا محمد آل مشوط وقال إن محمد علي متن العبارة التي غرقت في البحر الأحمر ولا تعلم ما هو مصيره بعد ذلك جال في فكري شريط يوم الأربعاء عندما جاءنا يبحث عن حزن وأخذت أسأل عبدالله من قال لك ذلك؟ وكيف علمت؟ فقال لي: لدي معلومة أكيدة أنه على متن هذه العبارة وبعد ذلك أقلت الخط واتجهت أتابع القنوات الفضائية وعندما كانت قناة «العربية» تبث شريطاً بارقام وضعتها وزارة

أخذ نصيحة من أدهم بن يثم الحجز له للمملكة الأردنية «عمان» والبقاء بها خمس ساعات ومن ثم الذهاب إلى القاهرة ولكنه رفض هذا العرض أو الانتظار لأكثر من ثلاثة أيام أخرى في جدة حيث إن معرض الكتاب سيفتح أبوابه كما قال بعد ذلك غادر آل مشوط مقر الجريدة إلى القنصل ويبدو أنه قد قرر الذهاب إلى ضياء جواً ومن ثم الذهاب بواسطة العبارة إلى سفاجا وهو ما حدث فعلاً.. وفي ليلة الجمعة «صباح السبت» وبالتحديد الساعة العاشرة و ٣٥ دقيقة اتصل بي زميلنا عبدالله آل قمشة مدير

محمد علي المعاوي أو «محمد آل مشوط» زميلنا المحرم المتعاون بمكتب «عكاظ» في ببشة ساقته الأقدار أن يتجه من ببشة إلى جدة ثم القاهرة لحضور ما تبقى من أيام في معرض الكتاب في القاهرة بصحبة صديقه سعود الببشي حيث غادر آل مشوط إلى جدة وعندما وصل آل مشوط إلى جدة وتزل في أحد فنادقها حضر إلى مقر الصحيفة وذلك يوم الأربعاء الماضي ليتابع بعض أخباره التي أرسلها من مكتب ببشة وللسلام على الزملاء عندما رأته كان عيادته منبسطة ومرحاً وخاطبني قائلاً «كيف الشعر الشعبي معك» وبعد أن كنت أتحدث إليه عن هذا الموضوع قاطعني قائلاً «ابغى أحجز للقاهرة» وفعلاً حاولت الاتصال بأحد الزملاء في الخطوط لتبني رغبته ولكن صديقي موظف الخطوط لم يجب على اتصالي فتحدثت إلى أحد الزملاء بحثاً عن إمكانية إيجاد حجز له على أي خطوط فقال لنا سأحاول وفعلاً قام زميلنا بالاتصال بأكثر من شخص ولكن محاولاته باءت بالفشل فقد اعتمر موظفو الحجز لعدم وجود مقاعد شاغرة ولكنه

01234567891011121314151617181920212223242526272829303132333435363738394041424344454647484950515253545556575859606162636465666768697071727374757677787980818283848586878889909192939495969798991001011021031041051061071081091101111121131141151161171181191201211221231241251261271281291301311321331341351361371381391401411421431441451461471481491501511521531541551561571581591601611621631641651661671681691701711721731741751761771781791801811821831841851861871881891901911921931941951961971981992002012022032042052062072082092102112122132142152162172182192202212222232242252262272282292302312322332342352362372382392402412422432442452462472482492502512522532542552562572582592602612622632642652662672682692702712722732742752762772782792802812822832842852862872882892902912922932942952962972982993003013023033043053063073083093103113123133143153163173183193203213223233243253263273283293303313323333343353363373383393403413423433443453463473483493503513523533543553563573583593603613623633643653663673683693703713723733743753763773783793803813823833843853863873883893903913923933943953963973983994004014024034044054064074084094104114124134144154164174184194204214224234244254264274284294304314324334344354364374384394404414424434444454464474484494504514524534544554564574584594604614624634644654664674684694704714724734744754764774784794804814824834844854864874884894904914924934944954964974984995005015025035045055065075085095105115125135145155165175185195205215225235245255265275285295305315325335345355365375385395405415425435445455465475485495505515525535545555565575585595605615625635645655665675685695705715725735745755765775785795805815825835845855865875885895905915925935945955965975985996006016026036046056066076086096106116126136146156166176186196206216226236246256266276286296306316326336346356366376386396406416426436446456466476486496506516526536546556566576586596606616626636646656666676686696706716726736746756766776786796806816826836846856866876886896906916926936946956966976986997007017027037047057067077087097107117127137147157167177187197207217227237247257267277287297307317327337347357367377387397407417427437447457467477487497507517527537547557567577587597607617627637647657667677687697707717727737747757767777787797807817827837847857867877887897907917927937947957967977987998008018028038048058068078088098108118128138148158168178188198208218228238248258268278288298308318328338348358368378388398408418428438448458468478488498508518528538548558568578588598608618628638648658668678688698708718728738748758768778788798808818828838848858868878888898908918928938948958968978988999009019029039049059069079089099109119129139149159169179189199209219229239249259269279289299309319329339349359369379389399409419429439449459469479489499509519529539549559569579589599609619629639649659669679689699709719729739749759769779789799809819829839849859869879889899909919929939949959969979989991000100110021003100410051006100710081009101010111012101310141015101610171018101910201021102210231024102510261027102810291030103110321033103410351036103710381039104010411042104310441045104610471048104910501051105210531054105510561057105810591060106110621063106410651066106710681069107010711072107310741075107610771078107910801081108210831084108510861087108810891090109110921093109410951096109710981099110011011102110311041105110611071108110911101111111211131114111511161117111811191120112111221123112411251126112711281129113011311132113311341135113611371138113911401141114211431144114511461147114811491150115111521153115411551156115711581159116011611162116311641165116611671168116911701171117211731174117511761177117811791180118111821183118411851186118711881189119011911192119311941195119611971198119912001201120212031204120512061207120812091210121112121213121412151216121712181219122012211222122312241225122612271228122912301231123212331234123512361237123812391240124112421243124412451246124712481249125012511252125312541255125612571258125912601261126212631264126512661267126812691270127112721273127412751276127712781279128012811282128312841285128612871288128912901291129212931294129512961297129812991300

عقد المحفص التمدي يجمع جلس
الطائرة اس الاربعاء وتوقش خلال
المشروع البلدية الحاري تطبيقا واحدا
نجر منها حاليا والمر اهل التمتانية وحق

مصيد الزهراس (ابها)

11

وأعالي محافظة بيشة عن تقديره العميق
لعماد الأمانة الكريمة من سمو

مليونان خسائرنا اليومية بعد التوقف.. والتعويضات ٤٠ مليون دولار

يد عبد الحمال (القاهرة)

[illegible][illegible]

مسار بديل في الاحساء وتأمين ٢٠٠ عربة للحاويات

الضيفان، المعتقل، السعودي بالعراق، يتطلع للإفراج عنه

٧٣ مليونا للخطوط الحديدية ونظام آلي لمتابعة حركة القطارات

_____ (please fill in)

[illegible][illegible]

الطالبات والمعلمات توقفن عن الحضور.. والتعليم: بدأنا البحث عن البديل

ثيا وتوصى بـخفض عدد الطالبات الى النصف

لجنة ثنائية تؤكد سلامة مبنى ثانوية المثنى

المادة 10: (مادة 10 من القانون رقم 10 لسنة 1994)
المادة 11: (مادة 11 من القانون رقم 10 لسنة 1994)

الملاحظات المتعلقة بالسياسة والاقتصاد، وأضاف أن أوضاع تدهور بعد الانتخابات في ٢٠٠٠ من حيث الضباب الأكاديمي الضبابي الأكاديمي، حيث إن الأكاديميين في العراق الدمدماء أو التناقض على وجه الصريح على المدرسة في نفس الحول الجوهري أو التناقض أعادت إلى دور الأستاذ	والهلع في نفوس الطالبات والمتخصصات اللاتي اشغبن العملات لخدمة اليوم المضي في التولي ونقلت السيدة من خلال الفرزاني عن التلاميذ والتعليم الطعامات في العراق على تقرير للجنة التي في سلامة التعليم في الناحية الإشرافية بعد بعض	تفاوت عاب في مشاغلها في الدمدماء باب لغير في تعرض متعددة في التبرع في سوط حل الربع
--	---	---

مناخة وتصوير: عبد الحادي الربيعي (المطائف)

شملت إدارة التربية والتعليم بـمطائف لجنة منتهية من ادارتي التعليم بـمطائف والمدني وعدد من المتخصصين في الشؤون التعليمية على وضع الخطة الاستراتيجية لـمطائف

طلابها تغيّبوا عن الحضور أمس

لاق مدرسة ابي فراس الحمداني بنجران

محمد الأحمدی (سحرانی)

جرحه إلى فريقه الذي
 مسؤول التقسيم بالحدائق
 مشيراً إلى صدور إعلان الإدارة
 بالبحث عن سلمي فريقه
 وأوضح أن عملية التطلعات
 يمكن التلاعب بها ولها كيان
 المسؤول وشيئت لتساعده مستند
 على الحركات مؤكدة من
 وجوده من بينه ذات الأقاليم
 من جرحه إلى فريقه الذي
 مسؤول التقسيم بالحدائق

محمد الأحمدى (سوري)

اعلم إدارة التربية والتعليم بمنطقة
بحران متوسطة اسي فزاس الحمداني
استاذية مما اصغر ٢٧٦ طالبا من قبيلة العرب
تتبع عن الحضور أمن الارضاء ووضح مدير
فم التربية والتعليم حسن بن احمد القرني ان
ملاق المدرسة يأتي ضمن خطة الوزارة لتقليص
مباني المتأخرة والتوجيه بنودا من حكومية
مبينة وفي طر تعليمي والكادسي واصابي

اخلاء فوري لابتدائية الوسيعة

ونقل الطلاب للدراسة المسائية

خدمت وزارة التربية والتعليم وأسس مصر طلاب من

الوسيلة الأساسية للحفاظ على الماء، وفرت أجهزة
المصفاة، وتقلل من دراسة في الفترة المسائية مع
المنزل.

وتلقى مدير المدرسة ناصر الصندل أمس خطاباً
الغوري وكانت محاسن المحافظة رويحت خلال اليومين الماض

مرج التحويلات المتجاوزة للصناعة

منذ من رابع الشهري إن ما
يتم به من الصالحات

المسمى استانبا ولا وجود لأي شروح أو تصديقات

الطلاب عاز من الصحة
بوا إلى أن تقرير العكاث

موايني للاتصالات لاتخاذ كافة
تدابير السلامة لتفادي أي

الحادث لتفادي الفريسة وأعت
الشهري بضرورة توحى

المصداقية لم تناول الإخبار

تأخذته تنسوي إلى أثير
المتني الذي أوصت التف

الصادرة من اللجان المجا

ويعطى لنا نماذج الطلاب الجاهلين وسلامته الإنسانية

100

نائب امير عسير يستقبل الناجين من حادثة العبارة

سعيد الزهراني (ابها)



نائب امير عسير خلال استقباله الناجين

واهالي محافظة بيشة عن تقديره العميق لهذه اللفتة الكريمة من سموه.

على استقباله الناجين ورعايته لهما. وعبر باسمه ونيابة عن الناجين واسرتهما

استقبل صاحب السمو الملكي الامير فيصل بن خالد بن عبدالعزيز نائب امير منطقة عسير صباح امس في مكتبه بالامارة الناجين من حادث غرق العبارة المصرية الزميل محمد آل مشوط المحرر بمكتب «عكاظ» ببيشة وسعود مترك المعاوي. وحمد سموه الله على السلامة» واستمع الى شرح منهما عن اللحظات العصيبة التي عاشاها من بداية غرق العبارة وحتى وصولهما الى بر الامان. وقال سموه ان ما حدث يشعرتنا بعظمة الله وقدرته سبحانه الذي يستحق الحمد والثناء على سلامتكما واثار سموه الى انه على استعداد لتوفير كل ما يحتاجانه.

من جهته شكر محمد بن سعود المتحمي محافظ بيشة المكلف الامير فيصل بن خالد





موبايلي... عالم من اختياري

mobily.com.sa

عكاظ | ترصد من داخل الطائرة والمطارات ملامح الفرح والحزن على وجوه الناجين



تسوير: علي بنين



وجها المومع لوكسي المظلة ملا يدق قلب أسرته



لم يبعد الرحلة 77 على كربي الطائرة



عائق حميد يندف قلب أيام الطائرة



المرحوم بروجي المظلة حميد 77 الشاء الحريق



المرحوم آل مشوحا وسيدته في مطار الخرقة



المرحوم محمد حسن الذي ولد والده والشقاء في الخرقة



مطار الرما سماعة



ناجون تنفسوا الصعداء لختاتهم من مأساة الطائرة